مقصورة ابن دريد

دراسة تحليلية نقدية

دكتور
محمد مبروك إبراهيم عطية
مدرس الأدب والنقد
بجامعة الأزهر

الفصل الأول
تعريف المقصورة

المقصورة لغة:

المقصورة من "قَصَرَ" والقَصْرَ كما أورد ابن منظور صاحب اللسان: خلاف الطول(١).

وأورد أيضاً في معناها: أنه خلافُ المَدّ(٢)، وأورد أيضاً صاحب القاموس المحيط أن القَصْرَ: خِلافُ المَدِّ(٣)، والمقصورة اسم مفعول منه والمقصور خلاف المنقوص عند النحاة، فهو في عرف النحاة:الاسم المعرب المختوم بألف لازمة قبلها فتحة (٤).

والمقصورة من الشعر كما نَصَّ على ذلك مجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط: "ما كانت قافيته مختومة بألف مقصورة"(٥).

والمقصورة في الاصطلاح :

يقول الدكتور مهدي علام: "المقصورة في الأدب العربي كل قصيدة من الرجز

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ق. ص. ر).
(٢) السابق: المادة نفسها.
(٣) الفيروز آبادي: القاموس المحيط ١١٦/٢، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٨/١٩٧٨م.
(٤) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط ٧٣٩/٢ قام بإدراجه د/ إبراهيم أنيس وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع استنابول – تركيا.
(٥) الدكتور محمد مهدي علام: حوليات كلية الآداب، المجلد الأول ص ١٩ مايو سنة ١٩٥١م جامعة عين شمس.

أو المتقارب أو الطويل أو الكامل أو غيرها من البحور كان رويها ألفاً لينة ".

ولكن ثمة تساؤل هو: أن كل قصيدة على هذه الأوزان السابقة ورويها ألف لينة يصح أن يطلق عليها هذه التسمية ؟

في الحقيقة يقوم بالإجابة على هذا التساؤل الدكتور مهدي علام بقوله:"لا نقصد بالمقصورة هنا أية قصيدة مقصورة القافية، فعدد هذا النوع يُعَدّ بالمئات، إذ يكاد لا يوجد شاعر عربي دون أن يحتوى ديوانه على قصيدة أو أكثر من هذا الروي، وإنما نقصد طرازاً خاصاً من القصائد، يمتاز إلى اشتراكه في الروي المقصور، بعدة خصائص أخرى في الأغراض التي يعالجها به والأسلوب الذي يعالجها به، وبعبارة أخرى، لا ندخل في هذه المجموعة إلا كل قصيدة سماها صاحبها "مقصورة" محاكياً فيها طرازاً خاصاً، ومتأثراً في إنشائها بشاعر سبقه بمقصورة معترف بها"(١).

ثم يضيف الدكتور سمات أخرى يشترط وجودها في القصيدة لكي يصبح إطلاق هذه التسمية عليها يقول:" وأهم ما تشترك فيه هذه المَقْصُوْرَاتُ هو أنها من حيث الشكل، على الروي المقصور، وأنها غالباً من بحر الرجز، وأنها في جملتها من المطولات في الشعر العربي، فمعظمها أطول من معظم القصائد العربية، وواحد منها" هي مقصورة القرطاجني" تبلغ ألف بيت وبيتين، أما من حيث محتوياتها فإنها تشترك في أنها إلى جانب الغرض الرئيسي الذي قيلت من أجله تحتوي على عدة أغراض إضافية من حيث علاقتها بالغرض الرئيسي، ولكنها في كثير من الأحيان قد تنال من الشاعر

(١) الدكتور/ محمد مهدى علام: حوليات كلية الآداب، المجلد الأول ص١٩، ٢٠، عدد مايو سنة ١٩٥٠م، جامعة عين شمس.

عناية بالغرض الأساسي، ومما لا شك فيه أنها مجتمعة تفوق الغرض الأساسي" (١).

وعلى أية حال فالشعراء الذين تناولوا هذا اللون من الفن قد جعلوا من" قصائدهم معارض شعرية عرضوا فيها كل ما استطاعوا عرضه من فنون الأدب والبلاغة، كما فعل كُتَّاب"المقامات"فى اتخاذها متاحف استودعوها كل ما وصلت إليهم قرائحهم من أساليب اللغة " (٢).

نشأة الروي المقصور:

يقول الدكتور مهدى علام:" وُجدت القافية المقصورة في العصر الجاهلي في صورة أقرب إلى التجربة منها إلى الرسوخ، ثم جاء القرآن الكريم فثبت قدمها بوفرة ما فيه من السجع الذي على نسق هذه القافية، ثم جاء شاعر من الشعراء " كالحلواني مثلاً " فاتخذ هذه القافية لقصيدة طويلة نحا فيها نُحواً خاصاً.... ثم سماها هو أو معاصروه "المقصورة"، وجاء ابن دريد وهو الأستاذ الضليع في اللغة، والشاعر البارع فحاكى طلائع الشعراء المقصوريين في قصيدة كان مقدراً لها أن تصبح هي النموذج المعروف للمقصورات " (٣).

معنى هذا أن هذا الفن قد اتضحت معالمه واكتملت خصائصه على يد الشاعر العالم ابن دريد وإن كان هذا لايمنع وجود إرهاصات أولى سبقته، فالمسعودي في" مروج الذهب" يشير إلى أن ثمة جماعة من الشعراء قاموا بمعارضة مقصورة ابن دريد منهم أبو القاسم على بن محمد بن داود بن فهم التنوخي الأنطاكي

(١) السابق : الصفحات نفسها .
(٢) الدكتور/ محمد مهدى علام: حوليات كلية الآداب، المجلد الأول ص٢٠، عدد مايو سنة ١٩٥٠م، جامعة عين شمس.
(٣) نفسه: ص ٢٩، ٣٠.

وهو في وقتنا هذا – وهو سنة ٣٣٢هـ – من جملة البريديين[١]، وأول قصيدته التي يمدح بها تنوخ وقومه من قضاعة[٢]:

لَـوْلاَ انْتِهَـائِي لَـمْ أُطِـعْ نَهْـيَ النُّهَـى ... أَيَّ مَـدىً يَطْلُـبُ مَـنْ جَـازَ المَـدَى
إِنْ كُنْـتُ أَقْصَـرْتُ فَمـا أَقْصَـرَ قَلْـ ... ـبُ دامِياً تُـدْمِيهِ أَلْحَـاظُ الـدُّمَـى
وَمُقْلَـةٌ إِن مَقَلَـتْ أَهْـلَ الغَضَـا ... أَغْضَـتْ وَفِـي أَجْفَانِهَـا جَمْرُ الغَضَـى

وفيها يقول:

وَكَـمْ ظِبَـاءٍ رَعْيُهَـا أَلْحَاظُهَـا ... أَسْـرَعُ في الأَنْفُـس في حَـدِّ الظُّبَـى
أَسْـرَعُ مِـنْ حَـرْفٍ إلى جَـرٍّ وَمِـنْ ... حَـبٍ إلى حَبَّـةِ قَـلْـبِ وَحَشَـى
قُضَـاعَةُ بْـنُ مالِـكٍ بْـنِ حِمْـيرٍ ... مـا بَعْـدُ لِلْمُرْتَقِـينَ مُرْتَقَـى

ويعلق بعد ذلك المسعودي قائلاً:"وقد سبق إلى المقصورة أبوالمقاتل نصر ابن نصر نصير الحلواني في محمد بن زيد الداعي الحَسَنِيِّ بطبرستان بقوله:

قِفَـا خَلِيلَـيَّ عَلَـى تِلْـكَ الرُّبَـى ... وَسَـائِلاها أَيْـنَ هَاتَيْـكَ الدُّمَـى ؟
أَيْـنَ اللَّـواتي رَبَعَـتْ ربوعهـا ... عَلَيْـكَ ؟ بِاسْـتِنْجَادِهَا تُشْـفَى الجَـوَى

(١) لمعرفة أصل البريديين وتطورهم يرجع إلى كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تأليف آدم ميتز، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، المجلد الأول ص ٤٨، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان.
(٢) المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق/ سعيد محمد اللحام ٣٢١/٤، ٣٢٢، طبعة دار الفكر الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م بيروت، لبنان.

ولابن ورقاء في المقصورة أيضاً:

مَا شِئْتَ قُلْ هِيَ الْمَهَا هِيَ الْقَنَا جَوَاهِرُ بَكَيْنَ أَعْطَافَ الدُّمَى[(١)]

ثم يقول الدكتور مهدي علام – مستنتجاً – أن ابن دريد ليس هو مبتكر فن المقصورة، مخالفاً بهذا الرأي الفكرة الشائعة التي تذهب إلى أن ابن دريد هو مبتكرها، ويستند في رأيه هذا على قول المسعودي السابق، الذى أرشدنا إلى بعض أصحاب المقصورات، ولكن هذه المقصورات اندثرت ولم تصل إلينا إلا إشارات خاطفة وعلى سبيل المثال ابن ورقاء الذي ربما كان هو بديل ابن ورقاء الذي ورد ذكره في القاموس المحيط على أنه صحابي[(٢)]، وكالحلواني الذي برهن أحمد عبد الغفور العطار على سبقه لابن دريد بقوله: " نظم ابن دريد مقصورته في مديح ابنى ميكال"، وجاء في معجم الأدباء لياقوت:"ولد أبو العباس بنيسابور، فلما قلد أمير المؤمنين المقتدر بالله أباه عبد الله بن محمد الأعمال بكور الأهواز، حمل إلى حضرة أبيه فاستدعى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد لتأديبه فأجيب إليه إيجاباً له، وبعث بأبي بكر الدريدي إليه، فهو كان مؤدبه، وكان واحد عصره، وفي عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس قال الدريدي قصيدته المشهورة في الدنيا[(٣)]"، والمقتدر تولى الخلافة سنة ٢٩٤هـ[(٤)].

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣٢٢/٤.
(٢) القاموس المحيط: ٣/ ٣٢٠، ٣٢١.
(٣) ياقوت الحموي (أبو عبد الله بن عبد الله الرومي الحموي ت ٦٢٦هـ): معجم الأدباء ٢٩١/٣ الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
(٤) جوامع السيرة: ص ٣٧٦.

وليس بين أيدينا التاريخ الذي يثبت مسير ابن دريد إلى فارس، ولكن هذا ليس كل شئ فيما يزيد بعد أن عرفنا سنة تولي المقتدر الخلافة، ولهذا نفترض أن المقتدر قَلَّد ابن ميكال عمالة الأهواز سنة توليه الخلافة، وأن ابن دريد نظم مقصورته في مديح ابني ميكال في هذه السنة نفسها لنعطيه الفرصة ليكسب الرهان.

والحلواني نظم مقصورته في مديح محمد بن زيد الداعي الحسني بطبرستان، ومحمد بن زيد تولى الإمرة بطبرستان والديلم بعد وفاة أخيه الحسني بن زيد سنة ٢٧٠هـ. وتوفي محمد بن زيد سنة ٢٨٧هـ.

فكما افترضنا مع ابن دريد أنه نظم مقصورته سنة تولى ممدوحيه عمالة الأهواز، وافترضنا أن المقتدر الذي تولى الخلافة سنة ٢٩٤هـ، قلد ابني ميكال العمالة عند توليه نفترض أن الحلواني نظم مقصورته سنة وفاة ممدوحه سنة ٢٨٧هـ لا سنة توليه بعد وفاة أخيه سنة ٢٧٠هـ حتى نقطع الشك باليقين.

وتأسيساً على ذلك نستطيع أن نقول أن ابن دريد نظم مقصورته سنة ٢٩٤هـ، وأن الحلواني نظم مقصورته سنة ٢٨٧هـ، وعلى هذا يكون الحلواني أسبق من ابن دريد ببضع سنوات(١).

وبذلك يتأكد لدى الباحث ما استنتجه الأستاذ الدكتور مهدي علام من كلام المسعودي من أن ابن دريد ليس مبتكراً لفن المقصورة وأن هذا الفن عرف في العصر الإسلامي.

ثم يفترض الأستاذ الدكتور مهدي علام أن"القافية المقصورة" كانت مستعملة في الشعر العربي قبل الإسلام فيقول:"غير أننا نجد بعض

(١) أحمد عبد الغفور العطار: ص٢٥، ٢٦.

المقطوعات الشعرية التي ينسبها بعض العلماء إلى العصر الجاهلي، كقول ابن جناب كالبيتين اللذين كانت تنشدهما السيدة عائشة :

فَارْفَعْ ضَعِيفَكَ لا يَحُرْ بِكَ ضَعْفُه ... يَوْماً فَتُدْرِكُهُ عَوَاقِبُ مَا جَنَى

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ فَإِنَّ مَنْ ... أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى[1]

فقدقام صاحب الأغاني بروايتهما ثم يعقب بعد ذلك بقوله:"الشعر لغريض اليهودي وهو السموأل بن عادياء وقيل إنه لابنه سعية بن غريض، وقيل إنه لزيد بن عمر بن نفيل، وقيل إنه لورقة بن نوفل، وقيل إنه لزهير بن جناب، وقيل إنه لعامر بن المجنون الجرمي الذي يقال له مدرج الريح، والصحيح أنه لغريض أولابنه" [2].

ثم يعود أبو الفرج فيروي عشرة أبيات من قافية المقصورة وتنتهي هذه الأبيات بالبيتين السابقين وينسب القطعة كلها إلى ورقة بن نوفل ومطلع القطعة:

رَحَلَتْ قُتَيْلَةُ عِيرَهَا قبل الضُّحَى ... وَأَخَالُ أَنْ شَحَطَتْ بِجَارَتِكَ النَّوى

أَوَكُلَّمَا رَحَلَتْ قُتَيْلَةُ غُدْوَةً ... وَغَدَتْ مُفَارِقَةً لِأَرْضِهِم بَكَى[3]

ثم يردف بعد ذلك الأستاذ الدكتور مهدي علام قائلاً:" وسواء أكان الشعر لغريض أو لابنه – كما قال أبو الفرج أولا – أو لورقة بن نوفل كما يقول هنا فإنه يكون على كل حال شعراً جاهلياً "[4].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ١٩٢/١، تحقيق محمد سعيد العريان، طبعة دار الفكر.
(٢) الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر ١٠٩/٣.
(٣) السابق: ١١١/٣.
(٤) أبو الحسن حازم القرطاجني وفن المقصورة في الأدب العربي للأستاذ الدكتور/ محمد مهدي علام ص ٢٦، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد الأول ١٩٥١م.

ويخصص بعد ذلك أحمد عبد الغفور العطار إحدى عشرة صفحة من بحثه القيّم للقافية المقصورة فى الشعر الجاهلى يورد فيها البيت المفرد النادر مثل:

امْنَعْ مِنَ الأَعْدَاءِ عِرْضَكَ لاَ تَكُنْ لحْماً لآكِلِهِ يَعُودُ يُشْتَوَى

والبيتين من مثل قول بشر بن عمرو بن مرشد الشيباني:

آمَاوِيَّ لَيْتَ الشَّيبَ فِى الرَّأْسِ لا يُرَى وَلَيْتَ الشَّبَابَ رَدَّ طُورَيْنِ لِلْفَتَى

كَأَنَّ شَبَابِي كَانَ ثَوْباً لَبِسْتُهُ فَأَبْلَيْتُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَى بِلَى

والمقطوعة ذات العدد مثل:

وَمَهْمَا يَكُنْ رِيَبُ الزَّمَانِ فَإِنَّنِي أَرَى قَمَرَ اللَّيْلِ الْمُغَرِّبِ كَالْفَتَى

تَقَارَبَ يَخْبُو ضَوْءُهُ وَشُعَاعُهُ وَيَمْصَحُ حَتَّى يَسْتَسِرُ فَلاَ يُرَى

كَذَلِكَ زِيدَ الْمَرْءُ ثُمَّ انْتِقَاصُهُ وَتَكْرَارُهُ فِي دَهْرِهِ بَعْدَ مَا مَضَى

تُصَبِّحُ أَهْلَ الدَّارِ وَالدَّارُ زِينَةٌ وَتَأْتِي الْجِبَالُ مِنْ شَمَارِيخِهَا الْعُلَى

فَلاَ ذَا غِنًى يُرْجِئْنَ عَنْ فَضْلِ مَالِهِ وَإِنْ قَالَ أَخِّرْنِي وَخُذْ رِشْوَةً أَبَى

وَلاَ عَنْ فَقِيرٍ يَأْتَخِرْنَ لِفَضْلِهِ فَتَنْفَعُهُ الشَّكْوَى إِلَيْهِنَّ إِنْ شَكَا

والقصيدة الطويلة مثل قصيدة الأَسْعَرِ الْجَعْفِي وهي من ثلاثين أولها [1]:

أَبْلِغْ أَبَا حَمْرَانَ أَنَّ عَشِيرَتِي نَاجُوا وَلِلْقَوْمِ الْمُنَاجِينَ الْتَوَى

(١) الأصمعي: الأصمعيات ص ١٤٠: ١٤٣، الوحشيات: ص ٤٣.

ومثل القصيدة المنسوجة لامْرِئ القيس ومطلعها:

إِنْ يَكُ شَيْبِي قَدْ عَلاَنِي وَفَاتِي شَبَابِي وَأَضْحَى بَاطِلُ القَوْلِ قَدْ صَحا

وهي من اثنين وأربعين بيتاً، وبذلك يثبت لنا أن القافية المقصورة معروفة في الشعر الجاهلي ولكن على قلة تثبت الوجود لا الشيوع. (١)

ثم يتساءل الدكتور مهدى علام عن السر في ذيوع القافية المقصورة بعد ظهور الإسلام، هذا الذيوع الكبير الذي تألفه الآذان بعد أن كان هذا النوع من القافية قليلاً بين شعراء الجاهلية كما رأينا.

وفي إجابته على تساؤله يتجه إلى القرآن الكريم، وما فيه من وفرة استعمال المقصور في سجعه تلك الوفرة التي مهدت للقافية المقصورة ذيوعها بين شعراء المسمين، ويسجل الأستاذ علام ثبتاً بأرقام جميع الآيات القرآنية التي جاءت مسجوعة بروي المقصور، ثم يقول:"ولقد ظل القرآن الكريم، منذ نزوله المصدر الأول للثقافة العربية، وكان في صدر الإسلام والعهود التي تليه مباشرة أكثر أثراً في توجيه أساليب الكتاب والشعراء، فكانوا يحاولون انتهاج أساليبه وتأثر ببلاغته، أليس من حقنا إذن أن نطمئن إلى دعوانا أن دوام التلاوة لهذه الآيات الكثيرة الورود في القرآن قد خلف في آذان مستمعيها من الشعراء ألفه لهذا الطراز من " القافية " لم يكونوا يعهدونها في أشعار الجاهلين إلا في صور قليلة مستحيية لا تكاد

---

(١) شعراء المعلقات وغيرهم من الفحول ليس في شعرهم قافية مقصورة باستثناء ما وجدته في أَمَالِي القَالِي ٢٣٧/٢وما بعدها وهي مقصورة لأبي صفوان السدي تتكون من ٦٥ بيتاً مطلعها:

نَأَتْ دَارُ لَيْلَى وَشَطَّ المَزَارُ فَعَيْنَايَ مَا تُطْعِمَانِ الكُرَى.

وكذلك ما وجدته في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وهي مقصورة للأغلب العجلى في سجاح عندما تزوجت مسيلمة الكذاب، راجع الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٣٦/٢١، ٣٧.

(2) الدكتور محمد مهدي علام: أبو الحسن حازم القرطاجني وفن المقصورة في الأدب العربي ص٢٨،٢٩ حوليات كلية الآدَاب.

تبدو في شعرهم إلا متوارية وراء خجل الندرة ؟" .

ثم يؤكد الدكتور استنتاجه السابق ويبرهن على صحته بقوله:"ومما يَزِيدُنَا تأييداً في استنتاجنا أننا عثرنا على قطعة من الشعر لها رَوِيٌّالمنقوص وهو اسم"المقصور"في اللغة، ولكنه ليس نظيره في الموسيقى، ولم يكتب لهذا الرَّوِيِّ البقاء فما نعرف له سوى هذه المقطوعة:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الكَبِيـ ... ـرَ كَرُّ الليالي ومَرُّ العَشِي
إذا هَرِمَتْ لَيْلَةٌ يَومُهَا ... أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِي
نَرُوحُ ونَغْدُو لحَاجَاتِنَا ... وَحَاجاً ومَنْ عَاشَ لا تَنْقَضِي
تَمُوتُ مَعَ المَرْءِ حَاجَاتُهُ ... وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي
إِذَا قُلْتَ يَوْماً لِمَنْ قَدْ تَرَى ... أَرُونِي السَّرِيَّ، أَرُونِي الغني
وسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ آمْرِئٍ ... وَسِرُّ الثَّلاثَةِ غَيْرُ الخَفِي(١)

ثم يقول: ويخيل إلينا أن هذه المحاولة لم تنجح، ولم تلق قبولاً لدى الشعراء، لأنها خالية من موسيقية "الروي المقصور"، ولأنها لم تجد لها سنداً يؤيدها في سجع القرآن كما وجد الروي المقصور، بل الأرجح أن القرآن لم يستعمل هذا الروي لجفوة موسيقاه " (٢).

(١) ابن قتيبة:الشعروالشعراء تحقيق:أحمد محمد شاكر ٤٩٣/١ دار الحديث للطباعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

(٢)الدكتورمهدى علام:المرجع السابق من ص ٢٧:٢٩، ولقد سارالعطارعلى خطى الأستاذ الدكتورعلام وخصص ست صفات من بحثه(من ص ١٨: ٢٣) لأثر القرآن في الشعر المقصور.

وأنى إذ أوافق الدكتور مهدى فيما ذهب إليه في هذا المسألة إلا أنني بدوري أتساءل ماالسبب في أن الروي المقصورفي الشعرالعربي بعد الإسلام اختفىأوكاد إلى أن جاءابن دريد بمقصورته التي نظمهاسنة ٢٩٤هـ، فصارت مثلاًيُحْتَذَى سارعلى منواله كل أصحاب المقصورات من بعده، ولم نرمن سبقه بعد نزول القرآن الكريم سوى الحلواني وابن ورقاء ؟

وكأني بالدكتور مهدى علام كان يحتاط لمثل هذا التساؤل فيقول:

" واستدعى هذا الفن نظر بعض الشعراء فحاكموا ابن دريد لقوة مقصورته من جهة، ولعدم بقاء مقصورة من سابقاتها من جهة أخرى [١].

خصائص المقصورة:

عند الحديث عن فن المقصورة في الأدب العربي ينبغي تبيان أن ليس المراد بها أية قصيدة جاءت على الروي المقصور، فهذا الروي العربي قد عرفه الشعر العربي منذ العصر الجاهلي[٢]، كما مَّر بنا قبل قليل، بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا إن الروي المقصور ربما عرفه شاعر في كل عصر.

إذن فما المراد بفن المقصورة ؟

لندع الأستاذ الدكتور/ **مهدي علام** يحدثنا عنه، يقول:" هو كل قصيدة سماها صاحبها"مقصورة"محاكياً فيها طرازاً خاصاً في إنشائها بشاعر سبقه بمقصورة معترف بها، وأهم ما يشترك فيه هذه المقصورات هو أنها في الشعر العربي فمعظمها أطول من معظم القصائد العربية، وواحدة منها"هي مقصورة القرطاجني"تبلغ ألف بيت وبيتين، أما من حيث محتوياتها فإنها تشترك في

(١) المصدر السابق ص ٣٠.
(٢) أحمد عبد الغفورالعطار: ص٧.

أنها إلى جانب الغرض الرئيسي الذي قيلت من أجله[١]، تحتوي على عدة أغراض إضافية من حيث علاقتها بالغرض الأساسي، ولكنها في كثير من الأحيان قد تنال من الشاعر عناية لا تقل عن عنايته بالغرض الأساسي، ومما لا شك فيه أنها مجتمعة تفوق الغرض الأساسي، ويكن وصف هذه الأغراض الإضافية بأنها سائر أغراض الشعر العربي التقليدية إذا استثنينا الرثاء والهجاء، وبعبارة أخرى جعل الشعراء المقصوريون من قصائدهم معارض شعرية عرضوا فيها كل ما استطاعوا عرضه من فنون الأدب والبلاغة، كما فعل كتّاب"المقامات"في اتخاذها متاحف استودعوها كل ما وصلت إليه قرائحهم من أساليب اللغة....

فنحن نجد في هذه المقصورات مقادير– تختلف فيها طولاً وقصراً–من الغزل الذي يصف فيه المقصوريون محبوباتهم ومناظر الفراق بين المحبين وما تحدثه في النفوس من لواعج الشوق الخ ومقادير من وصف البقاع التي اجتازها هؤلاء الشعراء " أو ادعوا أنهم اجتازوها "مع ما فيها من حيوان وثبات ومعاهد أنس وصداقة، وكذلك يصفون مطاياهم التي ركوبها في رحلاتهم، وهي عادة إبل أو خيل أو كلاهما.

ومما نلاحظه أن معظم هؤلاء الشعراء يخصصون جزءاً من المقصورة لوصف مشاهد الحياة في عصرهم ما يشهده المترفون كمشاهد الصيد وغيره من أسباب اللهو والتسلية، ومما تشترك فيه جميع المقصورات إرسال الأمثال والحكمة التي يعبر فيها الشاعر عن رأيه في الحياة تعبيراً مستمداً من تجاربه الشخصية أو من آراء من سبقه من الشعراء[٢] ثم هناك بكاء الشباب والتحسر

(١) يكاد يكون الغرض الأساسي دائماً هو مدح شخصية عظيمة، قد يكون الرسول الكريم، أو على بن أبي طالب، وقد يكون خليفة أو أميراً.

(٢) في مقصورة ابن دريد عشرات من أبيات الحكمة، انظر الأبيات من١٥٢ – ٢٠٩.

على أيامه، وشكوى الشيب والهرم، ويتصل بذلك"كما يتصل بقسم الحكم والأمثال"شكوى الزمان وأهله، وتهتم المقصورات كذلك بسرد عدد من الحوادث التاريخية في إشارات وتلميحات أدبية قد يسمو التعبير عنها إلى درجة اللوحات الفنية وقد أحيانا إلى مالا يزيد على أن يكون فهرساً منظماً، وإلى جانب ذلك نجد في المقصورات مظهراً من مظاهر العلم الذي يدل على نبوغ الشاعر في ناحية من نواحي علوم عصره كعلمه بأسرار اللغة، وقد نلمس ذلك في عبارات الشاعر وأسلوبه أوفي اختياره لفكرة من الأفكار يعرضها في صورة ممتازة مما يدل على معرفته الوثيقة بموضوع تلك الفكرة" (١).

وعلى أية حال فهذه الخصائص الفنية التي تصل بفن المقصورة خصائص قام بتحديدها الدكتور علام، ولنا أن نتعرف على خصائصها من خلال وجهة نظر أحد فرسان هذا الفن وهو حازم القرطاجني إذ يقول في مقدمة مقصورته التي مدح بها الخليفة المستنصر بالله:"أما بعد فإني أريد أن أنُصَّ في هذا المجموع، وأجلو في هذا الموضوع عقلية من بنات الأفكار، تزهى على العقائل الأبكار، وقد تحلت بعقود، من كل لفظ بالقلوب معقود، وتجلت في سموط، من كل معنى بالنفوس منوط، وغاص لها الخاطر في بحار الأغراض، على درر أصدافها جواهر، وجواهرها أعراض، فانتظم عقدها من اللؤلؤ المكنون، وانقسم ما اشتملت عليه من الأغراض والفنون، إلى:مديح، وغزل، وحكمة، ومُثُل ووصف معالم ومجاهل، ومنازل ومناهل، ورياض وأزهار، وحياض وأنهار، وأزمان وإعصار، ومدن وأمصار، وجواز في قفاز، وجواز في بحار وصيد وقنص، ووعظ وقصص، ومواقف تعجُّب واعتبار، ومواطن تبسم واستعبار إلى غير ذلك من ضروب المقاصد، التي أزاغ الخاطر اقتناصها من خفيّ المراصد، واهتدى إليها رائد الفكر، وهدى منها إلى العقول كلّ عقيلة بكر قد أحكم صيغتها ومبناها، وقسَّم صنعة لفظها ومعناها إلى ما ينشِّطُ السامع، ويقّرط المسامع، من تجنيس أنيس، وتطبيق

(١) الأستاذ الدكتور مهدي علام: أبو الحسن حازم القرطاجني وفن المقصورة في الأدب العربي ٢٣/١ حولية كلية الآداب جامعة عين شمس مايو ١٩٥١ م.

لبيق، وتشبيه نبيه، وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل، وتبليغ بليغ وتصدير بالحسن جدير، وترديد ماله من نديد إلى غير ذلك مما أجرى من الصياغة البديعة، والصناعة الرفيعة على نحو هذه المسالك، فالآن بأقراطها حالية والأذهان من أسماعها غير خالية، فهي من تناسب ألفاظها، وتناسق أغراضها قلادة ذات اتساق، ومن تبسم زهرها،

وتنسُّم نشرها، حديقة مبهجة للنفوس والأسماع والأحداق) [1].

(١)السابق:ص٢٠، ٢١، ومقدمة رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة – للشريف الغرناطي وكذا، مقصورة حازم القرطاجني، دراسة وتحقيق الدكتورمهدي علام، مجلة كليةالآداب، جامعةعين شمس، المجلد الثانى مايو ١٩٥٣ م.

مقصورة ابن دريد

يبدأ ابن دريد مقصورته بالشكوى من الزمان – مع ملاحظة إهمالنا للبيت الأول الذي وضعه الكمال بن الأنباري[1] فهو ليس من صلب القصيدة على الرأي الراجح فهو يريد أن يقول أن الدهر قد أصابه بالهرم وأدخل عليه الشيب في غير أوانه بسبب أحداثه الجسام التي أشعلت الشيب في رأسه " مثل اشتعال النار في جمر الغضا..." هذا بالإضافة إلى أنه قد أودى بنضرة شبابه وأذهب بها، وألهب، كما أنه ألهب الأشواق في قلبه، واشتد أوارها وسعيرها حين رماه بالغربة، وأبيضَّ شعره الذي كان يحاكي الليل المظلم، فقد تحول لونه الأسود إلى بياض كبياض الصبح ومن ثَمَّ جفا النوم عينيه وابن دريد يقول في هذا المعنى:

أولاً : شكوى الزمـــان

(١) يعلق الصاوي في بداية شرحه لمقصورة ابن دريد بقوله: " وهذا البيت ليس من مقصورة ابن دريد وإنما هو للكمال بن الأنباري " وهذا البيت يقول:

يَا ظَبْيَةً أَشْبَهَ شَـــيْءٍ بِالْمَـهَا تَرْعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا

وقبل هذا البيت أبيات للكمال بن الأنباري منها:

شَرَّدَ عَنْ عَيْنِي الْكَرَى طَيْفٌ سَرَى مِنْ أُمِّ عَمْرٍو فِي غَيَاهِبِ الدُّجَى

ثم يعلق الصاوي موضحاً سر اختيار العلماء لهذا البيت بقوله: " وما دفع الكل إلى هذا التعسف إلا طلبهم لمرجع الخطاب في قوله (ترى) فرأوا أن يبدؤا القصيدة بتشبيب على طريقة العرب فجعلوه مؤنثاً، ولست أدري أكانوا أبصر بأساليب الكلام من ابن دريد، ولِمَ لَمْ يرجعوا التاء إلى الدهر الذي يخاطبه ويشكوه في الأبيات أو يجعلوا الكلام على معنى الاستفهام فيكون أول القصيدة: أما ترى رأسها حاكى لونه – على معنى يا دهرأو إما ترى بإشباع فتحة الراء أو أما ترى يا دهر.

❁ ❁ ❁

إِمَّـا تَـرَى رَأْسِـيَ حَـاكَـى لَوْنُـهُ طُـرَّةَ صُـبْحٍ تَحْـتَ أَذْيَـالِ الدُّجَـى (١)

وَاشْـتَعَلَ الْمُبْـيَضُّ فِـي مُسْـوَدِّهِ مِثْـلَ اشْـتِعَالِ النَّـارِ فِي جَـزْلِ الغَضَـا (٢)

فَكَـانَ كَاللَّيْـلِ البَهِـيمِ حَـلَّ فِي أَرْجَائِـهِ ضَـوْءُ صَـبَاحٍ فَانْجَـلَى (٣)

ثم يقوم بتعداد ما فعله الدهر به، إذ رماه في صميم فؤاده، وما فعلته الغربة به إذ أوقدت ناراً تَتَأَجَّجُ، تكاد تذوب منه الضلوع والحشا، واتخذ الأرق عينيه مأوى، وهذا لا يقاس بما أبقاه بين جفنيه مرُّ الفراق من ألم مُبرِّح ولهيب محرق، يقول:

وَغَـاضَ مَـاءَ شِـرَّتِي دِهْـرٌ رَمَـى خَـوَاطِرَ القَلْـبِ بِتَبْـرِيحِ الجَـوَى (٤)

---

(١) (حاكى):أشبه، و(طُرَّة الصُبْح): يعني وجهه، وطرة كل شيء، حافته وجانبه، ومنه طرة الكتاب وهي الحاشية التي لا هدب لها، ويقال لها كنفه أيضاً، و(الأذيال):الأطراف واحدها"ذيل" ومنه ذيل القميص، و(الدجى):الظلمةوهي جمع "دجية" من قولهم ليل داج أي مظلم.

(٢)(المُبْيَضُّ):من الشعر الأشيب، و(مُسْوَدِّهِ): أي الشعر الذي بقى على حاله، (الجزل):من الحطب: ماغلظ منه،و(الغضا): ضرب من الشجر يبقى جمره محمراً بعد الاحتراق طويلاً، واحدته غضاة، قال الشاعر: **فسقى الغضا و الساكنيه وإن هموا شبوه بين جوانحي وضلوعي.**

(٣)(البهيم):الأسود يعني شعر رأسه أيام الصبا والشباب، وليل بهيم لا ضوء فيه إلى الصباح، و(حلَّ):نزل، على نحو قولهﷻ: ﴿أَوْ تَحِلُّ قَرِيْباً مِنْ دَارِهِمْ﴾، و(أرجاؤه): أطرافه وواحد الأرجاء: رجا، وهي مقصورة مقصورة قال الله ﷻ ﴿ وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ وأماالرجاء من الأمل فممدود، و(انجلى):ذهب وانكشف، قال الله ﷻ ﴿ وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ ﴾.

(٤)(غاض): يقال:غاض الماء، إذا نقص، وغاضه غيره:إذا نقصه و(شرتي)نماء شرتي، اسم لماء شبابه وقوته والشباب لا ماء له ولكنه استعارة، وأصل الشرة الحدةوالنشاط فاستعارها ههنا للشباب، و(الخواطر)ما يخطر بالقلب من الفكرة وأراد بخواطرالقلب:الفطنة وحدة الذكاء، و(تبريح):التبريح هوالبلوغ في المشقة إلى غايتها وهو = =من قولهم:برح بي هذا الأمر، إذابلغ به غاية في الحزن،و(الجوى)سقم الجوف من طول المرض، وقيل تأثير الحزن في القلب يقال:جوىً

وآضَ رَوْضُ اللَّهـــــوِ يَبْســــاً ذَاوِيـــاً ... مِـنْ بَعْـدِ مَـا قَـدْ كَـانَ مُجَّـاجَ الثَّـرَى [1]

وَضَـــرَّمَ النـــأيِ المُشِـــتُّ جَـــذْوَةً ... مَـا تَـأتلي تَسْـفَعُ أثنـاءَ الحَشَـا [2]

وَاتَّخَـذَ التَّسْـهِيدُ عَيْنِـي مَأْلَفـاً ... لِمَّـا جَفَـا أَجْفَانَهَـا طَيـفُ الكَـرَى [3]

فكُـلُّ مَـا لاقَيْتُـهُ مُغْتَفَـرٌ ... فـي جَـنْبِ مَـا أَسْـأَرَهُ شَـحْطُ النَّـوى [4]

ثم يواصل تصويره لأحداث الدهرالتى أصابته فهو يقول : لقد صار الروض يبساً بعدما كان ريَّان يمجُّ الندى، كما أن هذا الفراق الذي أحدثه الدهر بينه وبين أحبابه قد أشعل جذوة نارٍ لاتفتأ تهلك وتحرق أحشاءه وتترك آثاراً في جسده

---

(١)(آض): يئيض أيضاً، إذا رجع، ويكون بمعنى صار يقول: صار روض اللهو يبساً و(روض اللهو)هنا استعارة لأن اللهو لا روض له و(الروض):هو المكان المعشب، وتسميته في الأرض حقيقة وتسميته في اللهو مجاز والروض بهذا اللفظ جمع الواحدة روضة ويجمع على رياض ورَوْضَاتٍ، و(ذاويا):ذابلاً وهوالذي جفَّ بعض الجفوف وفيه ندوة بَعْد و(الْمُجَّاجُ):الصَّبَبُ من قولهم مجَّ الغصنَ الماء إذا ألقاه على قشره الأعلى ومَجَّ الرجل الماء إذا ألقاه من فيه ومُجَّاجُ الثرى أيضاًمثله، وإنما يعني بهذا القول أيام شبابه شبهها بروضةوما يقول آضت هذهالروضةأرضاًميتة لامنفعة فيها .

(٢)(ضرَّم):أشعل وأوقد، و(النأي):البعد و(المُشِتُّ):المُفَرِّق، و(الجذوة):الجمرة المشتعلة و(ما تَـأْتَلِي):أى ماتقصر ، وتأتلي وزنه تفتعل من قولهم ماألوت أفعل كذا أي ما قصرت قال الله ﷻ: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ اَلسَّعَةِ﴾ أي لا يقصر و(تسفع):تحرق وقيل تسفع وتؤثر من قولك سفعته النار إذا أحرقته وتركتفي جسمه آثاراً و(أثناء الحشا):يعني ما رقَّ من البطن وتغضن واحدها ثني وأراد به القلب والجوف وقيلأثناء الحشا نواحيه وجوانبه.

(٣)(التسهيد):من السهاد والسهروهوفقد النوم،(مألفاً):أي صاحباًوالمألف هوالموضع الذي تقع فيه الألفة، فأقام المألف هنا مقام الألف والألف هو الصاحب و(جفا):أي هجروالجفوةوالجفاء:الهجران والجافي في غيرهذا الخشن،و (الأجفان) وهي أغطية العيون بمنزلة جفن السيف وهو غمده، و(الطيف):ما يراه الإنسان من خيال محبوبته، و(الكرى):النوم.

(٤)(مغتفر):أي متجاوز عنه متروك، ومنه قولهم في الدعاء غفر الله لك معناه تجاوز اللهعنك، وأصل الغفران التغطية وسمي مغفر الدرع مغفراً لأنه يغطي الرأس فقول الداعي:اللهم اغفر لنا ذنوبنا معناه اللهم غطها واسترها و(أَسْأَرَهُ): أبقاه والسؤر البقية، وفي الحديث ﴿إذا شربتم فأسئروا﴾ أي:أبقوا بقية

لاتُمْحَى، وقدأمسى السهاد صديقاً حميماً لعينيه، وإنما كان ذلك عندما خاصم النوم أجفانه، وعلى الرغم من كل هذه الأحداث سواء كان متعلقاً بقدوم الشيب قبل أوانه ومن ثَمَّ ابيضَّ شعره، أو تبدد قوته وضياعها، فإن ما يلقاه منه مما يبكى قلبه، وهو المعروف بالتجلد والصبر والصمود إلى غير ذلك مما يحمي عينيه من البكاء، ولكنه صار إلى موقف وظروف لا يرى فيها كل يوم إلا غير ما هو موافق له بل ما هو مكروه مستثقل :

لَـوْلابَـسَ الصَّـخْرَ الأَصَـمَّ بَعْـضُ مَـا ... يَلْقَـاهُ قَلْبِـي فَـضَّ أَصْـلادَ الصَّـفَا (١)

إذا ذَوَى الغُصْـنُ الرَّطيـبُ فاعْلَمَـنْ ... أَنَّ قُصَـارَاهُ نَفَـادُ وتَـوَى (٢)

شَـجِيتُ، لا بَلْ أَجْـرَضَـتْنِي غُضَّـةً ... عَنُودُهـا أَقْتَـلُ لِـي مِـنَ الشَّجَـى (٣)

إِن يَـحْـمِ عَـنْ عَـيْنِي الْبُكَـا تَجَلُّـدِي ... فَالْقَلْـبُ مَوْقُـوفٌ عَلَـى سُـبُلِ الْبُكَـا (١)

---

(١)(لابس):خالط، و(الأصم):الصلب، و(فض):كسر، وأصل الفض التفريق قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾أي تفرقوا، و(أصلاد):جمع صلد وهي الحجارة الصلبة الشديدة قال الله ﷻ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾، و(الصفا):الصخرالصلاب الواحدة صفاة والمذكر صفوان قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾.

(٢)(ذوى):جف وذبل،يقال ذوى يذوي ذوياً وفي الحديث: {أن عمر بن الخطاب﵁ كان يستاك وهو صائم بعود قد ذوى} و(الرطيب):الناعم الرطب،و(قصاراه):آخرأمره ومنتهاه،و(النفاد):الفناءوالذهاب والانقطاع والفراغ،و(التوى):الهلاك وتوى: يعني:هلك

(٣)(شجيت):حزنت، والشجا الحزن من شجى يشجى شجواً و(الغصص): الاختناق، ويقال لامن ذلك شجى يشجى شجاً إذاغُصَّ، و(أجرضتنى):خنقتنى غضة الموت، و(الجرض) هو الاختناق بالريق، يقال شجيت بالعظم وغصصت باللقمة، وشرقت بالماء، وجرضت بالريق.

لَـوْكَـانَتِ الأَحْـلامُ نَاجَتْنِـي بِمَـا   أَلْقَـاهُ يَقْظَـانَ، لأَصْـمَا نِـي الرَّدَى.[٢]

ثم يقول : إن بعض الذي يلقاه قلبه من قسوة الدهر إنما يحاكي الذي يصطدم بالصخر الأصم فيصير تراباًتذروه الرياح وتبدده .

فهو في هذه الأبيات يبكي نفسه عندما رأى حلول المشيب لاسيما وهو نذير الهلاك لأن العود إذا ذبل، وماء الشباب إذا جفَّ أيقن أن عاقبة ذلك الموت والهلاك لامحالة :

مَنْزِلَـةٌ مَـا خِلْتُهَـا يَرْضَـى بِهَـا   لِنَفْسِـهِ ذُو أَرَبٍ وَلاَ حِجَـا[٣]

شَـيْمُ سَحَابٍ، خُلَّبٍ بَـارِقُـهُ   وَمَوْقِـفٌ بَيْـنَ ارْتِجَـاءٍ وَمُنَـى[٤]

---

(١)(يَحْمِ):جزم بالشرط ، وهو يعني:يمنع.و(التجلد):التصبر.و (السبل):الطرق واحدها سبيل.و(البكا):يُمَدُّ ويقصر .

(٢)(الأحلام):جمع حلم.وهوما يراه الإنسان في منامه على نحو قوله تعالى:﴿ ومـا نحـن بتأويـل الأحـلام بعـالمين ﴾ و(ناجتني): أخبرتني.و(اليقظان):الذي ليس بنائم وجمعه أيقاظ قال الله ﷻ ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ (لأصماني): لقتلني مكاني بلا تأخير، والأصماء القتل دون تلبث.والتلبث المكث يقال:رمى فلان الصيد فأصماه: أي أصابه مقتله قيل: أرماه فأشواه ، والشواء إخطاء المقتل و (الردى) :الهلاك وتصريفه ردى يردى ردىً .

(٣)(منزلة):أي درجة وهي مفرد وجمعها منازل.و(ماخلتها):أي ما حسبتها.و (ذو أرب):أي ذو عقل، يقال:فلان أريب أى عاقل،(الحِجَى):أيضاً العقل .

(٤) (الشيم):النظر إلى البرق خاصة، إذا نظرت إليه من جميع النواحي يأتي، و(الخلب): البرق الذي يخلب النظر، ولكنه لا ماء فيه.و(الارتجاء):من الترجي ضد اليأس وهو طلب الأمر المتوقع حدوثه، و(المنى):جمع أُمنية وهي من التمني.وهو طلب ما فيه عسر .

فِي كُـــلِّ يَـــومٍ مَنْـــزِلٌ مُسْتَوْبَـــلُ　　　يَشْـتَـفُّ مَـــاءَ مُهْـجَتِـــي أَوْ مُـجْـتَـوَى[1]

ولكننا نجد على الرغم من كل التغيرات التي يحكيها الشاعر مع الدهر طائعاً أو كارهاً لأن الذي يتمتع بالنفس الناطحة الكريمة لا يرضى بها على ظلله نراه لايزال يمتلك من الآمال ما يجعله صامداً أمام سهام الهر النافذة الى سويداء قلبه، لاسيما وأن حاله يحاكي حالة رجل يلتمس الظل في الرمضاء، أوكحالة رجل ينتظر السقيا من السحب المبرقة التي لا ماء فيها، وهو على هذه الحالة وهي الطمع، والرجاء وخيبة الأمل، وإنما يتمثل الطمع في السقيا من السحاب المبرقة، وارتجى ذلك بلهفة وشوق، ولكن سرعان ما أصابه الإحباط وخيبة الأمل، لأن السحابة التي كان يطمع في السقيا منها ، ورجا ذلك لا تمتلك الماء، وهو في هذه الصورة يبدو تأثره بالشاعر كُثَيِّر عزة الذي يصور حالة عشقه لعزة محبوبته، وطمع في أن يحظى بحبها وأن تبادله الغرام، ثم رجا ذلك بوله، ولهفة، وشوق، ولكن لم يجن من وراء حبه لها غير الفراق وخيبة الأمل يقول كُثَيِّر عزة :[2]

وَإِنِّـــي وَتَهْيَـــا مِـــي بِعَـــزَّةَ بَعْـــدَ مَـــا　　　تَخَلَّـــيْتُ مِمَـــا بَيْنَنَـــا وَتَخَلَّـــتِ

لَكَـــالْمُرْتَجِي ظِـــلَّ الْغُمَامَـــةِ كُلَّمَـــا　　　تَبَـــوَّأَ مِنْهَا لِلْـــمَقِيلِ اضْمَحَلَّـــتِ

---

(١) (المنزل):الموضع، و(المستوبل):المستثقل، و(يَشْتَفُّ):يستقصي، والاشتفاف:الاستقصاء يقال:اشتف فلان ما في الإناء إذا استقصاه، و(المهجة):النفس، وجمعها مُهَج، وقيل المهجة: دم القلب، و(المجتوى): المكروه، يقال :اجتويت البلاد إذا كرهتها، وإن كانت موافقة لك، واستوبلتها: إذالم توافقك وإن كنت غيركاره لها .

(٢) كُثَيِّر عزة : ديوانه ص٨١ ، شرح قدري مايو، الطبعة الأولى، دار الجيل، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

كَـأَنِّـي وَإِيَّاهَـا سَحَـابَـةُ مُمْحِـلٍ رَجَاهَـا فَلَمَّـا جَاوَزَتْـهُ اسْـتَهَلَّتِ

وعلى أية حال فإن ابن دريد كان على ثقافة ودراية تامة لناصية القريض، وليس تأثره بشعر كُثَيِّر عزة مما يعيب الشاعر ولكن هذا يدل على سعة معارفه بعلوم اللغة، يقول ابن دريد مبيناً مدى صموده وجلده وتماسكه أمام نكبات الدهر التي لاتنقطع :

مَـا خِلْـتُ أَنَّ الـدَّهْرَ يُثْنِينِـي عَلَـى ضَـرَّاءَ لا يَرْضَـى بِهَـا ضَـبُّ الكُـدَى[1]

أُرَمَّـقُ العَـيْشَ عَلَـى بَـرْضٍ فَـانٍ رُمْـتُ ارتشَـافاً فَارُمْـتُ صَـعْبَ المُنْتَشَـى[2]

أَرَاجِـعٌ لِـي الـدَّهْرُ حَـوْلاً كَامِـلاً إلى الـذي عَـوَّدَ أَمْ لا يُرْتَجَـى[3]

(١) (ما خلت):أي ما توهمت، و(يثنيني):يردني ويعطفني، يقال ثناه يثنيه، إذاعطفه، و(الضراء):الصخرة الصماء، وقيل الضراء: الأرض المشرفة،و(الضب):مولع بالحفر فيها أبداً، والضراء:مأخوذ من الضر الذي ضد النفع،وتجمع علىضرورات على غير قياس، وقال الأخفش:لا واحد لها، و(الضب): واحد الضِّبَابِ،وهي دواب تسكن الأرض الصلبة،و (الكُدَى):جمع كدية، وضباب الكد: سميت بذلك:لكثرة حفرها في الأرض .

(٢) (الرمق):بقية العيش، وعيش رمق يمسك الرمق، والرمقة: بضم الراء وككتاب وسحاب وجبل، البلغة أو قليل يمسك الحياة، والمق بضم الراء والميمالفقراء المتبلغون بالرماق القليل من العيش، والترميق:العمل يعمله ولا يحسنه يتبلغ به وهو مرمق العيش، ومرمقه كمعظم إذا كان مضيقاً عليه مقتراً عليه رزقه، أُرَمِّق العيش: أي أسدده وأقطعه عن التعليل، و (البرض): العطاء القليل، وقال بعض اللغويين البرض القليل من الماء، وقوله: فإن رمت أى هممت، وقيل عالجت، و (الارتشاف): أن يستقصي شرب ما في الإناء وهو دون الاشتفاف في الاستقصاء والاشتفاف عندهم عيب، (المنتشَى) المطلب البعيد.

(٣) (الحول):السنة،و(راجع):أي مرجع ومعيد .

ثم يقف معاتباً الدَّهْر على ما أصابه من آلآم وأحزان، لأنه لم يكن يظن أن الدهر يرضيه بما لا يرضى به الضَّب، من خشونة العيش، لأنه لا يرد الماء، ولا يكون إلاَّ في الأماكن الصلبة التي لاخير فيها بل ولا يُنتظرمنه خير ، كم إنه يعترف وهو في ظلِّ هذه النكبات أنه أمراً صعب المنال لا يقدر عليه، ولكنه الأمل الذي يساوره بين الحين والحين يدفعه لأن يعاود التساؤل من جديد هل يرجع إليه الخير الذي اعتاد أن يأتيه أيام الرخاء أم لا يرتجي منه أن يعيد شيئاً.

ثم يعترف بعد ذلك أنه بهذه الأحداث أضحى يصارع الوهن والنصب اللذين أحاطا بجانبيه، كما أضناه الألم الذي ينوء بحمله الأبطال حتى صار كالغصن الضعيف الذي ذهبت بلحاه وقشره أحداث الزمان، ومن ثَّمَ فهو يرجو الدهر أن يحقق مايطمح إليه أما إذا لم يوافق الدهر على ذلك، فليرفق به لأنه وَطَّنَ نفسه على ما يرضيه، ولا ينبغي للدهر أن يظن أنه يذل لنكبة أصابته أو صعوبة حَلَّتْ له، لأنه أقوى من الدَّهر لا يئن لحدوثها ولا يشكو لمصابها، ولكن هذه الأبيات ما هي إلا نفثة مصدور ورجوت بها عادة من اذرحم صدره بما يفيض عنه، يقول:

يَـا دَهْـرُ إنْ لَـمْ تَـكُ عُتْبَـى فاتّئِـد ... فـإن إروادَك والعُتْبَـى سـوا (١)

رَفِّـهْ علـىَّ طـالمـا أَنْصَبْتَنِـي ... واسْـتَبْقِ بَعْـضَ مَـاءَ غُصْـنٍ مُلْتَحَـى (٢)

---

(١) (العتبى): الرضى وهو الرجوع إلى المراد، (فاتئد): أرفق ينال من ذلك،(الإرواد) الرفق والمهل أرود يرود إرواداً فهو مرود ويقال: أورد به أي رفق ومنه قوله ﷻ : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ ، (سوا) كسواء أي مثل ومستو.

(٢) (رَفِّه):أي وسع على ورغد عيشي،و(طالما):أي زمناً طويلاً،و(أنصبتني):بالصاد غير المعجمة أتعبتني من النصب وهو التعب،ويروى (أَنْضَيْتَنِي):بالضاد المعجمة وياء تحتية مثناة بعدها، بمعنى هزلتني وأضعفتني، والضنى الهزال، بقال منى ذلك ضنى يَضْنِي ضنىً إذا ضعف وهزل،وأضناني المرض أهزلني،و (الملتحى):المقشور، يقال: لَحَوْتُ العود أَلْحُوه لَحْواً أيضاَ ألحاه لحياً، واللحا:قشر العود

لا تَحْسَبَنْ يا دَهْرُ أني ضَارِعٌ لنكبةٍ تَعْرُقُنِي عَرْقَ المُدَى [١]

مَارَسْتُ مَنْ لَوْ هَوَتِ الأَفْلاكُ مِنْ جَوانبِ الجوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا

لَكِنَّها نَفْثَةُ مَصْدُورٍ إذَا جَاشَ لَغامٌ مِنْ نواحيها غَمَا [٢]

ثم يواصل هذه الوقفة التي تنم عن مدى عجزه أمام المقادير وأحداث الدهر والحسرة تأكل فؤاده ووجدانه ذلك العجز الذي أجبره أخيراً على الاعتراف به والامتثال للقدر لأنه إذا سخط على صرف القضاء، ولم يرض به، فإن القسر حتماً سيجبره ويرده ، إلى الرضى به، فلابُدَّ من الرضا كرهاً أو طواعية .

لقد كان يظن أنه سيظل متنعماً بمتاع الدنيا، وما كان يدري أن الزمان من شيمه تفريق الشمل وتبديده وإضعاف العزائم القوية، كما كان لايظن أن عاقبة أمره ستبلغ به إلى هذا الحد، وأن القضاء سيقذف به في هوة سحيقة

---

(١)(الضارع) : الدليل الخاضع.(النكبة)المصيبة والشدة، (تَعْرُقُني) :أي تزيل لحمي عن عظمي من قولهم عرقت العظم أعرقه عرقاً إذا أكلت ما عليه من اللحم:(المدى) السكاكين واحدتها مدية.

(٢) (النفثة): ما يلقيه الرجل من فيه إذا بصق، يقال: نفثت الحية تنفث تنفث ونفثاً إذا ألقت ريقها وذلك الريق سم قاتل،(المصدور)الذى يشتكى صدره ومنه المثل: لابد أن ينفث (جاش): علا وارتفع، يقال جاشت إليه نفسه أي ارتفعت، وقيل جاش: اجتمع، وكذلك جاشت النفس اجتمعت، والأول أصح قال ابن الإطنابة :

أَبَتْ لِي شِيمَتِي وَأَبَى بَلائِي وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

وَإِقْدَامِي عَلَى المَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرْبِي هَامَةَ الْبَطَلِ الْمُشِيحِ

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

راجع ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ /٧٥ تحقيق محمد سعيد العريان، طبعة دار الفكر ،و(اللغام): الزيد وهو ما يلقيه البعير من فيه، يقال لغم البعير يلغم لغامة إذا رمى باللغام، الزَّبَد والملغم: الفم

لانجاة لمن يقع فيها ولا خلاص ولا مفر .

ثم يقوم بإلقاء اللوم على نفسه لأنه يعلم أن هذه الخصال من طبيعة الزمان والدهر وما كان ينبغي عليه أن يتناساها أو يتجاهلها، وأن يُعِدَّ نفسه لمثل هذه الأمور وأن يحسب لهل ألف حساب، يقول :

رَضِيتُ قَسْراً وَعَلَى القَسْرِ رِضَى مَنْ كَانَ ذَا سَخْطٍ عَلَى صَرْفِ القَضَا (١)

إِنَّ الجَدِيدْيِنِ إِذَا مَا اسْتَوْلَيَا عَلَى جَدِيدٍ أَدْنَيَاهُ لِلْبِلَى (٢)

---

(١))(القسر):القهر على المكروه،يقال قسره على كذا أي قهره هـ،و(السخط):الغضب.

(٢) (الجديدان): الليل والنهار،وكذا الأجدان،و العصران،والملوان، قال الشاعر:

أَلاَ يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالسَّبُعَانِ أَمَلَّ عَلَيْهَا بِالْبِلَى الْمَلَوَانِ

و(السبعان): بضم الباء موضع ببلاد قيس،و(الأسودان):التمر والماء،وأيضاً الليل والحرة،و(الأبيضان):اللبن والماء، والخبز وةالماء أيضاً، قال الشاعر :

الأَبْيَضَانِ أَبْرَدَا عِظَامِي الْمَاءُ وَالْخُبْزُ بِلاَ إِدَامِ

و(الأصفران):الذهب والزعفران،و(الأحمران):اللحم والخمر،و(الأطيبان):النوم والنكاح،والصحة والشباب، و(الحجران):الذهب والفضة،و(الأزهران):الشمس والقمر،وأيضاً يطلق عليهما(القمران) و(الخافقان):المشرق والمغرب،و(الثقلان):الإنس والجن، وهذا كثير في لسان العرب ، راجع في ذلك : ابن جني:جنى الجنتين في معرفة المثنيين .(نشر مكتبة القدسي) . و(استوليا):يعني غلبا وملكا،ويجوز أن يكون (استوليا): تبعاً ولزوماً من قولهم ولي فلان عمله إذا تبعه ولزمه،و(أدنياه):قرباه، و(البِلَى):الإخلاق، يقال ثوب بال وخلق ودارس، و(البلى) يُمَدُّ ويُقْصَر فإذا كسرت قصرته،أما إذا فتحت أوله مددت .

مــــا كُـــــنْتُ أَدْرِي والزَّمَـــــانُ مُولَــــعُ	بِشَـــتِّ مَـلمـــومٍ وتـــنكـيـث قُـــوَى(١)
أَنَّ القَضَــاءَ قَـــاذِفــي فِـــي هُـــوَّةٍ	لا تَسْتَـبِـلُّ نَفْسُ مَــنْ فِـــيهَـا هَــوَى(٢)
فَـــإن عَـــثَرْتُ بَعْــدَهـــا إنْ وَأَلـــتْ	نَفْســي مِــنْ هــاتَــا فَقُــولا لاً لَعــا (٣)
وَإِنْ تَكُــــنْ مُــــدّتُهَـــا مَوْصُولَـــــةً	بِالْـحَتْــفِ سَلّـطْـتُ الأَسَـى عَلَـى الأَسَـى(٤)

❊❊❊

(١)(مولع): من الولوع أي ملازم ومغرى به، يقال أولعت بكذا إذا لزمته ،و(الشَّتُ): من التشتيت والتفريق،و(الملموم):المجموع من قولهم لمَّهُ يَلِمُّهُ،إذا جمعه،و (التنكيث) النقض،من قولهمنكث العهد أي نقضه .

(٢)(القضاء):الحكم،والمراد به أحكام الله ﷻ على عباده بالغِيَر والأحداث كأن النعمة الضافية التي كان فيها قد ألهته وصرفتهعن التفكير في زوالها أو تغيرها، و(قاذفي): القاذف الرامي، يقذفه في بئر إذا رماه فيها، و(الهوة):الحفرة يتسع أسفلها ويضيق أعلاها،و(لاتَسْتَبِلُّ):لاتبرأ، وكان يجب أن يقول:لا تنجو وما يشاكل هذا،و(هوى):سقط.

(٣)(عثرت):العثرهو الزلل،و(وألت): نجت وخلصت،يقال هذا موئل فلان،أي ملجؤه الذي يفزع يفزع إليه أي يلجأ إليه ومن قوله ﷻ ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾أي ملجأومفزعاً، أما آل فلان إلى كذا (بالمد) فمعناه رحع، يقال : آل الأمر إلى كذا يؤول أولاً مثل قال يقول،و(هاتا): إشارة إلى مؤنث، بمنزلة هذا للمذكر لأنه عائد على العثرة المضمرة التي دلّ عليهاقوله: وإن عثرت،وتقديره:إن عثرت عثرة بعدها ثم وألت نفسي من هذه العثرة،وإن شئت كان الضمير عائداً على الهوة فى البيت الي قبل هذا، وهاتا بمعنى هذه، تقول العرب:هاتا فعلت كذا، وللمذكر: هذا فعل كذا، و(لا لعا):لا نجاة ولا خلاص، ولعا دعاء للعاثر بالسلامة إذ جئت به دون لا، فإن أتيت معه بلا فمعناه لاسلامة .

(٤)(إن تكن مدتها):الهاء في مدتها تعود على النكبة، و(الحتف):الموت وجمعه،حتوف، و(الأسى):بضم الهمزة جمع أسوة، أي تعزية، قال الشاعر:

وَلَقَدْ عَلِمْتَ وَإِنْ ضَرَبْتَ لِيَ الأَسَى أَنَّ الـــرَّزِيَّةَ يَوْمَ قَتْلِ دؤاد

ثانيا : (بين الشاعر وأبطال من التاريخ)

استدعاء الشخصيات التاريخية

يقوم الشاعر بعد ذلك بعرض بعض النماذج من الأبطال الذين لحقهم مثلما لحقه من صراع مع الدهر ،والذي آل بهم الأمر إلى الإخفاق وعدم تحقيق طموحاتهم التي كان يرنو إليها كل بطل من هؤلاء الأبطال، فكأنه يجد لنفسه الفرصة للتعزي والتسلي بالحديث عنهم، وكأنه أيضاً يريد أن يقول:إنه وإن كان قد حدث له إخفاق في تحقيق آماله، فقد حدث لبعض من العظماء، فهو إذن لم يكن وحده الذي وقع عليه هذا الغبن .

فهويتعرض لذكر أخبارهم وما ذاقه كل منهم من صنوف العذاب ولكنها مختصرة بهدف فالتعزي والسلوى ففكرته تتمثل في قول بعضهم :(كلنا في الهم شرق). ولعل أول من قام بعرض سيرته هو :

أولاً : *امرئ القيس* : بقوله :

إِنَّ امْـرَأَ الْقَـيْسِ جَـرىَ إِلَـى مَـدَى فَـاعْتَـاقَـهُ حِـمَـامُـهُ دُونَ الْمَـدَا .(١)

قيل: كان من حديث امرئ القيس أن أباه طرده، لما قال الشعر، وكان ينتقل في أحياء العرب، ويتبع صعاليكها، فكان يغير بهم على الطوائف، واستهتر بذلك، وعرف به، وكان أبوه ملك بني أسد، فعسفهم عسفاً شديداَ، فتمالئوا علي قتله، فلما بلغه قتل أبيه قال : " ضَيَّعَنِي صغيراً وحَمَّلَنِي ثِقْلَ الثأر كبيراً "، وكان يشرب، فقال : " اليوم خمر وغداً أمر، اليوم قحافٌ، وغداً ثِقَافٌ"، فأرسلهما مثلاً، ثم جمع جمعاً من بكر بن وائل، وغيرهم من صعاليك العرب، وخرج يريد بني أسد، فخبرهم كاهنهم بخروجه إليهم، فارتحلوا، فوقع بقوم من كنانة، من بني علي بن مسعود الغساني، فقتلهم قتلاً ذريعاً، وأقبل أصحابه يقولون : يالثارات الهُمام، فقالت عجوز منهم : واللاَّت، ما نحن ثأرك، وإنما ثأرك بنو أسد، وقد ارتحلوا، فرفع عنهم القتل، وأنشأ يقول :

أَلاَ، يَـا لَهْـفَ هِنْـدٍ، مِـنْ أُنَـاسٍ هُـمُ كَـانُوا الشِّـفَاءَ، فَلَـمْ يُصَـابُوا

---

(١) (مدى):غاية، و(إعتاقه حمامه):أي منعه، يقال اعتاقه وعاقه بمعنى واحد، و(الحمام) بالكسر:الموت مأخوذ من قولهم حُمَّ الأَمْرُ، أي قرب .

وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ، بِبَنِي عَلِيٍّ وَبِالأَشْقَيْنَ مَا كَانَ الْعِقَابُ
وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءٌ جَرِيضَاً وَلَوْ أَدْرَكْنَهُ صِفْرَ الْوِطَابُ (١)

ثم إن أصحاب امرئ القيس اختلفوا عليه، وقالوا : أوقعت بقومٍ بُرَآءَ، وظلمتهم، فخرج إلى اليمن، إلى بعض مقاول،(٢) حمير، واسمه قَرْمَلٌ، فاستجاشه،فَتَبَّطَه، قَرْمَل، فذلك حيث يقول :

وَكُنَّا أُنَاسَاً، قَبْلَ غَزْوَةِ قَرْمَلٍ وَرِثْنَا الْغِنَى والْمَجْدَ، أَكْبَرَ أَكْبَرَا(٣)
بَكَى صَاحِبِي، لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيْقَنَ أَنَّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا

ثم ارتحل إلى بلاد الروم، وذلك حيث يقول :

فَقُلْتُ لَهُ : لا تَبْكِ عَيْنُكَ، إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكَاً، أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا (٤)

فدخل على قيصر، فاستغاثه، فأجابه أن يرفده، وهَوِيَتْهُ ابنته، وكان جميلاً، فصار إليها، وذلك حيث يقول :

سَمَوْتَ إِلَيْهَا، بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ، حَالاً عَلَى حَالِ (٥)

فوشى به واش، من بني أسد، يقال له الطَّماح إلى قيصر، فتذمم قيصر أن يقتله ، فوجه معه جيشاً،وأمده بستمائة مُدَرَّع،وأتبعه بِخُلَّةٍ مسمومة،وقال للرسول:اقرأ عليه السلام وقل له : إن الملك قد بعث إليك بحلة، قد لبسها، ليكرمك بها، فأَدْخِله الحمَّام، فإذا خرج فألبسه إياها، فلما لبسها

(١) امرؤ القيس:ديوانه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص١٣٨، طبعة دار المعارف، الطبعة الخامسة، و(الجَدُّ): الحظ، و(عليٌّ):هو علي بن مسعود الغساني، و(علباء):هو علباء بن الحارث الكاهليّ كان قتل أبا امرئ القيس،و(الجريض):الذي يغص بريقه عند الموت، و(صفر الوطاب):أي هلك فخلا جسمه من روحه كما يخلو الوطاب من اللبن، وقيل: المعنى أنه يقتل فتصفر وِطابه، أي تخلو ويذهب لبنها فلا يكون له لبن، لأنه إذا مات فلا يكون له شيء من ماله .

(٢) (المقاول): جمع مِقول، وهو الملك، راجع في ذلك أبا الفرج الأصفهاني : الأغاني ٩٢/٩ .

(٣) امرؤ القيس:ديوانه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٧٠.

(٤) السابق : ص ٦٥،٦٦، و(صاحبه): هو عمرو بن قميئة، و(الدرب) : ما بين بلاد العرب والروم .

(٥) نفسه : ص ٣١ .

تَفَطَّرَ جلده عن عظمه، فقال القصيدة التي يقول في الذي جرى إلى غاية هي أن ينال الملك من قتله أبيه، ولكن الموت عاقة عن تحقيق أمانيه وكذلك أبو الجبر بن عمرو الكندي أحد ملوك العرب استعان بكسرى على قومه، وفي الطريق رغب الجيش في التخلص منه فأطعموه طعاماً مسموماً، ولما ساء حاله أذِنَ لهم في العودة، ومات متأثراً بعلته دون أن يحقق ما أراد، وابن الأشج القيل، وهو عبد الرحمن بن الأشعث خلع طاعة الخليفة عبد الملك بن مروان، وأنقاد لطاعته أهل الرأي ولجأ إلى الجبال مما يلى الكوفة والبصرة واتبعه قُرَّاء العراق، وعلما وهم كسعيد بن جبير والشعبى، فكانت بينه وبين الحجاج حروب عظيمة انتهت بهزيمته، ثم وقوعه في الأسر بعد أن أسلمه أحد ملوك الهند الذين لجأ إليهم إلى رسل الحجاج، فلما سارت به الرسل باتوا على سطح مرتفع، وكان قد قرن إلى رجل من بني تميم بسلسة في أيديهما وكان التميمي أسيراً معه، فلما كان جنح الليل قال للتميمي قم معي لأبول فلما قام معه أشرف من السطح، ولف عليه ثوبه، فقال له التميمي: ما تصنع أيها الأمير ، قال: الساعة أعلمك ثم رمى بنفسه فوقع هو و التميمي فماتا جميعاً.

والوضاح:

واسمه جُذَيْمَة الأبرش الأزدي وكان أبرص، والعرب تقول للذي به بَرَصٌ : به وَضَحٌ،(١) تحسيناً للفظ، وهو جذيمة بن مالك بن فهم بن دوس بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وعنه يقول ابن دريد :

واخْتَرمَ الوَضّاحَ مِنْ دُونِ التَّي أَمَّلَها سَيْفُ الحِمام المُنْتَضَى .(٢)

فقد عرضت عليه " الزباء " ملكة تدمر الزواج منها ليتصل ملكها بملكه، فرغب في ذلك، وسار إليها، ولكنها غدرت به، وقتلته أخذاً بثأر ولدها الذي سبق أن قتله وانتزع أطرافاً من مملكته، على الرغم من نصيحة المقربين إليه .

---

(١) الوضح :البياض ، فسمته عشيرته بالوضاح، تعظيماً له .

(٢)(اخترم):الاخترام الهلاك يقال:اخترمته المنية،أخذته والقوم استأصلتهم اقتطعتهم، والخرم في الشعر:هو ذهاب الفاء في فعولن،أو الميم في مفاعلن،و(الحمام):الموت، و(المنتضى):المسلول من قولهم:انتضيت السيف انتضاءً،إذا أخرجته من غمده،واسم الفاعل:مُنْتَضٍ،واسم المفعول:مُنْتَضَىً،ويقال:سيف مُنْتَضَىً،أي مجرد .

ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة :

الذي خرج على بني أمية، وخطب له بالبصرة، وسلمت عليه جارية من جواريه بالخلافة،كذلك نرى ابن دريد يتعرض لسيرة هذه الشخصية بقوله :

فَقَدْ سَمَا قَبْلِي يَزِيـدُ طَالِبـاً   شَأْوَ الْـعُلَى، فَمَا وَهَى، وَلا وَنَـى [١]

فاعْتَرضَتْ دُونَ الَّذِي رَامَ وَقَد   جـدَّ بـه الجـدُّ اللهيـم الأربـى. [٢]

وكأني بابن دريد يريد أن يقول : إنَّ لي في يزيد بن المهلب[٣] أُسوة فقد طمحت نفسه وهمته طلب العلا في الوصول إلى الخلافة، وأن ينتزعها من بني أُمية، فقد كان يرى أنهم ليسوا أهلاً للخلافة، وقد شحذ عزيمته من أجل ذلك، فلم تضعف ولم تهن، حتى كاد أن يتم له أمله، وأن ينالها.

ولكن الأقدار التي تتحكم في مصائر الخلق حالت بينه وبين ذلك، فقد داهمته الدواهي والبلايا،واعترضت طريقه،وحالت دون الوصول إلى ما تمناه على الرغم من

---

(١)(سما):علا،و(الشأو) :الغاية، وقيل : الشأو : البعد،والشأو : طلق الفرس، يقال جرى الفرس شأواً أو شأوين، و(العلا): الشرف، و(ما وهى) :أي ما ضعف، وقيل : وهى : الصدع، يقال : وهى يهي وَهْياً، وأصل الوهي : الشق، قال الله ﷻ :﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾، و(لا ونى):أي ولا فتر،قال الله ﷻ:﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي ولا تفترا،وتصريفه: ونى يني وَنْياً واسم الفاعل : وانٍ .

(٢) (اعترضت):أي بدت، وقيل معناه عارضت، وفيه تقديم وتأخير، أي فاعترضت اللهيم الأربى دون الذي رام، ومعنى(رام):طلب،وجدَّ،وحثَّ،وأسرع، و(جَدَّ):اجتهد، وجَدَّ أيضاً في غير هذا الموضع:قطع، و(اللهيم الأرَبى):اسمان من أسماء الداهية،وأصل الداهية: الشدة، ويقال لها أُم اللئيم. و(الجِدُّ):العزم، والجِدُّ أيضاً:الحق.

(٣)(يزيد بن المهلب):هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي،أبو خالد:أمير، من القادة الشجعان الأجواد، ولي خراسان بعد وفاة أبيه(سنة٨٣ هـ) فمكث نحواً من ست سنين، وعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج (أمير العراقين في ذلك العهد) وكان الحجاج يخشى بأسه، فلما تمَّ عزله حبسه، إليها، وافتتح جُرْجَان و طَبَرِسْتَان، ثم نُقل إلى إمارة البصرة، فأقام فيها إلى أن استخلف عمر بن عبدالعزيز، فعزله، وطلبه، فجيء به إلى الشام، فحبسه بحلب، ولما توفي عمر وثب غلمان يزيد، فأخرجوه من السجن، وسار إلى البصرة فدخلها وغلب عليها(سنة ١٠١ هـ) ثم نشبت حروب بينه وبين أمير العراقين مسلمة بن عبد الملك، انتهت بمقتل يزيد بن المهلب راجع في ذلك الزركلي: الأعلام ٨ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

جده واجتهاده، ووقوف الحظ إلى جواره بادئ ذي بدء.

ابن الأشج القيل :

يتابع ابن دريد حديثه ذاكراً نموذجاً آخر من النماذج التي لاقت حتفها دونما أن تحقق غايتها وهو ابن الأشج القيل وفيه يقول :

وَابْنُ الأَشَجَّ القَيْلُ سَاقَ نَفْسَهُ إلى الرَّدَى حِذَارِ إِشْمَاتِ العِدَى.[1]

هذا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وهو من كندة، وكندة من قحطان، وكان أبو بكر الصِّديق قد زوَّج الأشعث بن قيس أخته، ووجه به الحجاج بن يوسف إلى رتبيل، ملك الترك ليقاتله، وقد كان رتبيل أوقع بالمسلمين الذين كانوا بسجستان، وكان الحجاج مع ذلك يبغض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس،ويقال : إن الحجاج قال:ما رأيته قط إلاَّ أردت قتله، وقال الشعبي:كنت عند الحجاج جالساً، حتى دخل عبد الرحمن، فلما رآه الحجاج قال:انظر إلى مشيته، والله لهممت أن أضرب عنقه، قال : فلما خرج عبد الرحمن (ابن الأشج) [1] خرجت، فسبقته، فلما لقيته

---

(١)(العدى) :والعدا، والعداة، والأعداء واحد، والعدى أيضاً مكسور مقصور ويكتب بالياء، قال الشاعر :

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عِدىً لَسْتَ مِنْهُمُ فَكُلْ مَا عَلَفْتَ مِنْ خَبِيثٍ وَطَيِّبِ

وأما العدا بالكسر والمد : فالموالاة بين الشيئين، وهي المتابعة، قال الشاعر :

فَعَادَى عِداءً بَيْنَ تَيْسٍ وَنَعْجَةٍ دِرَاكاً وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ

و(القيل):الملك دون الملك الأعْظم أو من ملوك حمير، وجمعه أقيال ومَقَاوِلَةٌ ومقاولات وأقوال، و(ساق نفسه إلى الردى):أي الهلاك، يقال من ذلك ردى يردي ردىً، إذا هلك قال الله ﷻ ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدى ﴾و(إشْمَات العدى): تشفيهم وفرحهم بما يغيظه ويؤلمه، وهو وإن كان قتل نفسه فقد أشمتهم فيه، ولكن حسبه أن لم يمكنهم من التنكيل به وتعذيبه لو وقع في أيدي أعدائه .

(١) و(الأشج):هو قيس أبو الأشعث، سُمِّيَ بذلك، لِشَجَّةٍ أَصَابَتْه في بعض الحروب، وكان قيس سخياً، وكان جدُّه أيضاً من قبل أمه سعيدبن قيس الهمداني، لأن الأشعث بن قيس زوَّج ابنه محمداً بابنة سعيد بن قيس الهمداني، فلذلك قال أعشى همدان في عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : =

= **بَيْنَ الأَشَجِ وَبَيْنَ قَيْسٍ بَاذِخٌ بَخْ بَخْ، بِوَلِدِهِ وَبِالْمَوْلُودِ**

فالأشج جَدُّه من قِبَلِ أبيه، وقيس الذي ذكره الأعشى جده من قِبَلِ أمه، وأخت أبي بكر التي

خبَّرته بمقالة الحجاج،واستكتمته، فقال:وأنا كما زعم الحجاج،إن لم أحاول أن أُزيل ملكه، إن طال بي وبه بقاء .

أبو الجبر بن عمرو الكندي :

وكذلك أبو الجبر بن عمرو الكندي أحد ملوك العرب يقول عنه ابن دريد مبيناً ما حدث له مع قومه الذين قاموا بالتعدي على ملكه فاستغاث بكسرى الذي أمده بجيش من الأساورة :

وَخَامَرَتْ نَفْسُ أَبِي الْجَبْرِ الْجَوَى حَتَى حَوَاهُ الحَتْفُ فِيمَنْ قَدْ حَوَى .(١)

وتفصيل القصة كما تنص المصادر على النحو الآتي، فأبو الجبر بن عمرو الكندي، اسمه وكنيته واحد، وكان انْتَزَى(٢)على ملك كندة، بعد معد يكرب بن وليعة، ثم تغلب على الملك قوم من اليمن، فأخرجوه عن دار مملكته، فورد على كسرى، وقال إني ملك من ملوك اليمن، فابعث معي جيشاً إلى من تغلب على مُلكي ، فإذا أنا هزمتهم أتيتك بأناس من قومي، فدخلنا في دينك، فقال له كسرى : أعشرة آلاف ممن يصيب الرَّمِيَّة مرة ويخطئ مرة أحب إليك أم أربعة آلاف ممن لا يخطئ ؟ فقال أبو الجبر:بل أربعة آلاف ممن يصيب الرمية، ولا يكونون إلاَّ من أشرافهم، فإنه لا أربعة آلاف يستقبل جيشاً أربعة آلاف نشابة أوهنتهم، فوجههم كسرى معه، وترك أبو الخير عمه شرحبيل بن يزيد رهينة عند كسرى .

زوجها من الأشعث هي أُمِّ فَرْوَةَ .

(١) (خامرت):خالطت، ومنه سميت الخمرة، لمخالطتها العقل وتغطيتها عليه، و(الجوى):مقصور مفتوح داء في الجوف، وقيل الجوى: تأثير الحزن في الجوف، يقال من ذلك جوى يجوي جوىً، والجواء مكسور وممدود، اسم أرض، قال الشاعر:

عَفَا مَنْ آلِ فَاطِمَةَ الْجَوَاء فَيُمْنٌ فَالْقَوَادِمُ فَالْحِسَاءُ

ويقال الجواء هنا: جمع جو وهو البطن من الأرض، و(حواه):أي حازه، و(الحتف):الموت وجمعه حتوف .

(٢) انتزى : وثب .

فلما أتى كاظمة [1] قال بعض الأعاجم لبعض: أين تسيرون مع هذا ؟ إنما يريد أن يقاتل قومه، ويجعلنا عبيده، فعمدوا إلى سم فدفعوه إلى طباخه ووعدوه بالإحسان، فسموه في معرفة فرسه[2] ، فمكث حيناً مريضاً، فلما طال مرضه بعث إلى الحارث بن كلدة الثقفي، وكان طبيب العرب، فأتاه فعالجه، فأعطاه أبو الجبر جواري، وحباه وكساه، فكان فيما أعطاه سمية أُم زياد وأَبي بكرة، ثم مات أبو الجبر فكتب رأس الفرس إلى كسرى بموته، فكتب إليهم: أن انصرفوا، فانصرفوا، وبلغ كسرى بعد ذلك أنهم سموه، فقال لهم : لو تَيَقَّنْتُ ذلك لصلبتكم من كاظمة إلى المدائن.

وينهي الحديث عن هؤلاء العرانين في العلا – كما يقول – بالحديث عن نفسه، فهو إذا ما عجز عن تحقيق مراده لا يعدو أن يكون واحداً كهؤلاء الذين حال الدهر بينهم، وبين تحقيق آمالهم العظيمة... ولكنه قد يتحقق له ما يريد، فتنيله المقادير ما يسعى إليه.... فيكون مثله مثل العديد من مشاهير الرجال الذين كافحوا إلى أن نالوا ما يطلبون....

ثم يأخذ الشاعر في ذكر بعض من نجحوا في الحصول على مآربهم... فمنهم: عمرو بن عدي اللخمي الذي نال أمانيه، وأدرك ثأره من الزباء التي قتلت خاله جذيمة الأبرش واستنزلها من معلقها قسراً (وهي من عقاب لوح الجو على لوح الجو أعلى منتمى).

وسيف بن ذي يزن :

فقد استطاع هذا الرجل أن يحقق أمانيه بأن يُجْلِيَ جيوش الحبشة،

---

(١)الظاء مُعْجَمَةٌ، الكظم:إمساك الفم، والكاظم:المطرق لا يُجِرُّمن الإبل، قال :

فَهُنَّ كُظُومٌ مَا يُفِضْنَ بِجِرَّةٍ لَهُنَ لِمُبَيِّضِ اللغَامِ صَرِيفُ

وهي موضع على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان،وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب واستسقاؤها ظاهر، وقد أكثر الشعراء من ذكرها .

(٢) كذا وفي مطبوعة دمشق: فعمدوا إلى سم، فدفعوه إلى طباخه، ووعدوه بالإحسان إليه من أنفسهم، فألقاه في أحب الألوان إليه .

ويحرر بلاده، وقد كافأه الشعب على ذلك بأن اختاره ملكاً عليه، وإلى بطولة سيف بن ذي يزن يشير ابن دريد بقوله :

وَسَيْفٌ اسْتَعْلَتْ بِهِ هِمَّتُهُ حَتَّى رَمَى أَبْعَدَ شَأْوِ الْمُرْتَمَى . (١)

فَجَرَّعَ الأُحْبوشَ سُمًّا نَاقِعاً واحتل مِن غَمْدان مِحْراب الدُّمى . (٢)

واستطاع أن يُجْلِيَ جيوش الحبشة، ويحرر بلاده، وقد كافأه الشعب على ذلك بأن اختاره ملكاً عمرو بن هند عم النعمان بن المنذر نال ثأره من بني تميم قتله أخيه في يوم أوارات وأحرق بالنار مائة من أشرافهم (٣).

وينهى حديثه عن هؤلاء الذين حققوا أمانيهم العظيمة بالحديث عن نفسه ، كيف أن اليأس والرجاء يصطرعان فيها ، وكثيراً ما ينتصر الرجاء على اليأس ....

لقد كان الشاعر ذكياً وحصيفاً بل وملهماً حين تحدث عن عبر الأيام متأسياً بمن تحداهم الزمن ، وأعاقهم عن بلوغ آمالهم ، منتقلاً بعد ذلك إلى عامل الرجاء ، معدداً أولئك الذين قهروا كل عصى يقف سداً دون ما يطمحون إليه ، وإن كان فى ذكره لهؤلاء المشهورين لم يتقيد بالترتيب الزمني

---

(١) بمعنى واحد، و(الشأو):الغاية، وشأو كل شيء غايته، وشأو الفرس طلقه، قال الشاعر في تثنيته :

إِذَا مَا جَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عَطْفُهُ تَقُولُ هَزِيزُ الريح مَرَّتْ بِأَثْأَبِي

(الْمُرْتَمَى):موضع الرَّمْي، وهو الذي يقال له الغرض، ويقال له الهدف، ويقال له لقرطاس.

(٢)(جرَّع): سقى، والجرعة:القليل من الماء، ومنه قول الله ﷻ ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يَسِيغُهُ ﴾ أي لا يقطع شربه، (الأُحْبُوش):ملك الحبشة، ويقال للجماعة أيضاً أحبوش وحبشة، وقد تحبشوا: إذا اجتعموا،(ناقعاً):بالغاً أقصى فعله في الجسم من الإيذاء والموت وثابتاً، يقال نقع نقوعاً إذا ثبت، و(احتل):نزل بالمكان واتخذه محلاً (غُمْدَان):موضع بصنعاء اليمن، وكان فيه قصر عظيم به صور من الرخام هدمه عثمان بن عفان،(الدُّمَى):الصور .

(٣)راجع في ذلك:عبد الله إسماعيل الصاوي: شرح مقصورة ابن دريد من ص ٣٣ – ص ٥٠ طبع بنفقة المكاتب العربية للتجارة والطباعة والنشر – فاس – الدار البيضاء.

فهو قد قدم حديثه عن عبد الرحمن بن الأشعث على حديثه عن جذيمة الأبرش ، كما ذكر كل واحد منهم فيما لا يتجاوز البيتين غالباً ، وكثيراً ما يذكره فى بيت واحد ، وكان بإمكانه أن يستغل قصة كل واحد منهم متتبعاً لها ، ولجزئياتها ، صانعاً من ذلك عملاً درامياً ناجحاً .

ولكنه كدأب أغلب الشعراء أغلب الشعراء العرب قد مال إلى الإيجاز والتزكير ، ولو فعل ذلك .... لضاعف من طول مقصورته ولأتاح لنفسه الحديث عن البطولات التي حققها هؤلاء الذين تحدث عنهم ، سواء منهم من وفقوا التحقيق مآربهم أو من عجزوا عن ذلك ، فيحقق بذلك عنصراً مهما من عناصر الشعر الملحمي وهو الإشادة بالبطولات النادرة .

فالشاعر إذن لم يكن وحده الذى أخفق فى تحقيق آماله وطموحاته ولكن هناك غيره كثيرون لا يقلون عنه درجة بل لقد حظي كل منهم بمكانة عالية ولكنه لم ينجح فى الوصول إلى هدفه ، فلا لوم عليه إذن ، إن هو لم يحقق ما كان يطمح إليه ، ويعبر عن هذا المعنى بقوله :

هَلْ أَنا بِدْعٌ مِنْ عَرَانِينَ عُلاً ... جَارَ عَلَيْهِمْ صَرْفُ دَهْرٍ وَاعْتَدَى (١)
فَإِنْ أَنَالَتْنِي المَقَادِيرُ الَّذِي ... أَكِيدُهُ لَمْ آلُ فِي رَأْبِ الثَّأَى(٢)

ثم يواصل الشاعر حديثه تاركاً الذين لم يحققوا آمالهم ذاكراً بعض النماذج الأخرى التي حالفها التوفيق فاستطاعت أن تحقق آمالها بعزيمتهم وهمتهم ومنهم على سبيل المثال :

فكما وجدناه يعدد لنا بعض النماذج التي لم يحالفها التوفيق والسداد وهم بصدد السعي لتحقيق آمالهم وجدناه أيضاً يشرع في ذكر بعض من نجحوا في الحصول على مآربهم فمن هؤلاء:

---

(١)(البدع): الذي يكون أولاً في كل أمر قال ﷻ ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي لست بأول مرسل، و (العرانين):جمع عرنين، والعرانين هم الأشراف، والعرنين:الأنف وإنما سُمِّي العرنين شريفاً لأنه كالعرنين في الوجه،وهو أرفع ما يكون،و (العُلا): الرفعة، و (جار): عدل، أي عن الحق ومال عنه،و (صر وف الدهر):أحداثه ونوائبه،و (اعتدى):من العدوان أي الظلم .

(٢)(فإن أنالتني): أي أعطتني، و (المقادير):جمع مقدار، وهو القَدَرُ، و (أو أكيده):أطلبه، وأَحْتَالُ عليه،و (لم آل) لم أُقَصِّرْ،و (رأب):إصلاح، من قولهم: رأبت الشيء أرأبه رأباً، و (الثَّأَي):الفساد .

أولاً: عمرو بن عدي اللخمي:

فعمرو هذا قد سبقت الإشارة إليه، وأدركنا أنه استطاع أن يحقق أمانيه، وأدرك ثأره من الزباء التي قتلت خاله جذيمة الأبرش واستنزلها من معقلها قسراً (وَهْيَ مِنْ عُقَابِ لَوْحِ الْجَوِّ أَعْلَى مُنْتَمَى)، يقول ابن دريد مشيراً إلى ذلك :

وَقَـدْ سَمَا عَمْــــروٌ إِلَى أَوْتَارِهِ   فَاحْتَطَّ مِنْهَا كُلُّ عَالِي الْمُسْتَمَى .[1]

فَٱسْتَنْزَلَ الزَّبَّـاءَ قَسْراً وَهْيَ مِنْ   عُقَابِ لوح الـــجو أعلى منتمـــى.

(١)(سما):علا،و(الأوتار):جمع وتر وهو طلب الدم،و(احْتَطَّ مِنْهَا): أَي أَنْـزَل، و(الْمُسْتَمَى): المكان العالي المرتفع،وهو مفتعل من سما إذا ارتفع وزيدت التاء فيه لبناء افتعل كما زيدت في استجاب. (سيف)المقصود بسيف:هو سيف بن ذي يزن ملك اليمن ويكنى بأبي مرة، له قصة وبطولات خالدة معروفة في التاريخ،و(استعلت):أي علت وارتفعت،يقال علا واستعلى .. (سيف)المقصود بسيف:هو سيف بن ذي يزن ملك اليمن ويكنى بأبي مرة، له قصة وبطولات خالدة معروفة في التاريخ،و(استعلت):أي علت وارتفعت،يقال علا واستعلى .

ثالثاً : عمرو بن هند عم النعمان بن المنذر :

ولعل من الشخصيات الَّتي حققت أحلامها هو عمرو بن هند، نال ثأره من بني تميم قتلة أخيه في يوم أوارات وأحرق بالنار مائة من أشرافهم، يقول ابن دريد :

ثُمَّ ابنُ هِندٍ باشَـرَتْ نِيرانُــهُ يَوْمَ أُوَاراتٍ تَميماً بالصَّلا (١).

ما اعتَنَّ لي يَأسٌ يُنَاجِي هِمَّتي إلا تَحَدَّاهُ رَجَـاءٌ فَاكْتَمَــى (٢).

---

(١)(باشـرت):أي خالطـت،و(يوم أوارات):يـوم معـروف مـن أيـام العـرب وأوارات:اسـم موضـع، و(تميمـاً):يعني قبيلة،والنسبة إليها تميمي،(الصـلا):وهج النـار،وهو مقصـور إذا فتحت،وإذا كسرت الصـلا مددتـه فقلت الصـلاء،و(ابن هند):هو عمرو بن هند اللخمـي ت٤٥ ق هـ/٥٧٨م،ملـك الحيـرة فـي الجاهليـة،عُرف بنسبته إلـى أمـه هند(عمـة امـرئ القيس)تمييـزاً لـه عن أخيـه عمرو الأصـغر(ابن أمامـة)،أما نسبه فهو:عمرو بـن المنـذر الثالث ابن امرئ القيس بن النعمان بن الأسود،من بنـي لخم، من كهلان،يلقب بـالمحرق الثاني،لإحراقه بعض بني تميم في جناية واحد منهم اسمه سويد الدارمي،قتل ابنـاً(أو أخـاً) صـغيراً لعمرو،ملـك بعـد أبيه،واشـتهر فـي وقـائع كثيـرة مـع الـروم والغسـانيين وأهـل اليمامـة،وهو صـاحب صـحيفة المـتلمس، وقاتـل طرفـة بـن العبـد الشـاعر،كان شـديد البـأس،كثير الفتك،هابتـه العرب وأطاعتـه القبائـل،وفي أيامـه ولـد النبـيﷺ،واستمر ملكـه خمسة عشر عاماً، وقتله عمرو بن كلثوم(الشاعر،صاحب المعلقة) أنفة وغضباً لأمه، راجع في ذلك: الزركلي : الأعلام ٥/ ٨٦

(٢)(اعتن)اعترض، و(تحداه)اعتمده وقصده،(اكتمى):استتر وتغطى .

ثالثاً : الوصف واتجاهاته في المقصورة

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

في هذه الأجزاء التي تبدأ بالبيت الخامس والأربعين يسلك الشاعر مسلك البدو من الشعراء، كذي الرمة والراعي النميري محاولاً أن يصف الإبل، والحجيج، والخيل والفرسان، ويشيد بالعرب، كما يصف آلات القتال من دروع ورماح وسيوف، زاعماً أنه سيظل ملازماً لسلاحه ممتطياً فرسه، واصفاً هذا الفرس المزعوم، ويستغرق هذاالوصف ستة وخمسين بيتاً من المقصورة، ويدل وصفه ذلك على معرفة واسعة بما وصفه، كما يدل على علم دقيق بما وُضِعَ لأجزاء الموصوف من مسميات، وبخاصة الخيل، وصفاته للجمال لا تخرج عما هو متوارث معروف للجميع فهي خوص العيون، ضمر، راعفة الأنوف من"جذب البُرى"تظهر وتختفي في بحري النهار والليل، مخضبة الأخفاف بالدماء تاركة آثار دمائها على الحصى الأبيض، كمايصف الحجاج بصفة تغلب عليهم وهي صفة الشحوب والضمور، والنُّقى، ثم يأخذ في سرد مشاعر الحجِّ سرداً فقهياً، حتى إذا انتهى من ذلك في البيت الثامن والخمسين، أخذ في وصف الخيل متبعاً في ذلك أسلوب ذي الرُّمة في الانتقال من موضوع إلى موضوع، فيقول :

بِذَاكَ أَمْ بِالخَيْلِ تَعْدُو المَرَطَى ناشزوً أكتادها قُبَّ الكُلى .[١]

كما ينتقل ذو الرمة في وصفه للحمار الوحشي إلى وصف الثور فيقول[٢]:

---

(١)(بذاك أم بالخيل):الباء فيه متعلقة بقسم محذوف تقديره أقسم بذاك أم بالخيل، و(تعدو): بالعين المهملة، أي تجري، يقال: عدا يعدو عدواً إذا جرى، و(المرطى): ضرب من العدو وهو السهل منه،(ناشزة):بالزاي المعجمةأي مرتفعة، ومنه قولهم:قعدت على نشز من الأرض أي موضع من الأرض مرتفع،(أكتادها):جمع كتد وهو العظم الذي يكون في رأس الكتف وقيل الكتد ما بين الكاهل ووسط الظهر،(قب الكلى):أي ضامرة الكلى .

(٢) ذو الرمة(غيلان بن عقبة)ديوان ذي الرمة شرح الإمام أبي نصر الباهلي تحقيق د/ واضح الصمد ٦٦/١ الطبعة الأولى١٤١٧هـ/١٩٩٧م طبعة دار الجيل و(النمش):نقط أسود بقوائمه(الأكرُع): واحدها كراع وهو الوظيف والوظيف ما بين الركبة إلى الرسغ، وفي الرجل ما بين العرقوب إلى الرسغ و(مسفع الخد):أسود(ناشط) يخرج من أرض إلى أرض،(شبب):مُسن.

أَذَاكَ أَمْ نَمِشٌ بِالوَشْمِ أَكْرُعُهُ مُسَفَّعُ الخَدِّ غادٍ نَاشِطٌ شَبَبُ .

ويكرر ذلك حين ينتقل مرة ثانية إلى وصف ذكر النعام فيقول[1] :

أَذَاكَ أَمْ خَاضِبٌ بِالسِّيِّ مَرْتَعُهُ أَبُو ثَلاثِينَ أَمْسَى فَهْوَ مُنْقَلِبُ .

فملامح التأثير واضحة بين كلا الشاعرين، مما يدل على أن هذه الأجزاء عمل عقلي في غالبيته ونمط سائد في الغالب على الشعراء وأصحاب القصائد الطويلة في معظم الأحيان، وها هو ابن دريد يسلك هذا المسلك فيصف الخيل بأنها تعدو مرتفعة الأكتاف، ضامرة شعثاء كالسراحين، مائلة الحماليق، تباري ما عليها من رماح، يحتملها الفرسان الأشداء ثم يقسم ابن دريد بالإبل التي تحمل البررة من هؤلاء الحجيج الذين يَمَّمُوا وجوههم صوب البيت العتيق بمكة المكرمة محرمين لأداء الفريضة ملبين مكبرين لله ﷻ مستعرضين لهذه المشاهد الكريمة، طائفين بالبيت سبعاً، ساعيين بين الصفا والمروة، مودعين التكبر والدنيا بأعراضها الزائلة، صائمين عن اللغو وهجر القول، وقد نالوا الأجر من الله، فهو يقسم بهذا وبذلك أي بالخيل، فَقَسَمُهُ بالخيل قَسَمٌ آخر بمعنى أنه أقسم بالإبل ومن أَقَلَّتْهُ ظُهُورُها من الحجاج، ثم بعد ذلك يقسم بالخيل العادية المرتفعة ظهورها ضموراً وهزالاً.

وابن دريد بهذا المسلك يُظهر لنا مدى تأثره بالنزعة الدينية، فهو يتعرض لشعيرة من شعائر الدين الإسلامي وهي فريضة الحج، ومدى المعاناة التي يلاقيها الحاج وهو بصدد القيام بأدائها، وكذلك ما تتحمله الإبل من مشقة في تلك الرحلة عبر الصحراء .

كما تبدو ظاهرة في منهج ابن دريد الوصفي وهي ظاهرة الاسترسال في الوصف، ولعل ذلك يتضح عندما أقسم بالخيل، فقد وجدناه يسترسل في وصف هذه الأفراس؛ إذ يرى أنها نشيطة شعثة من كثرة العدو والحركة، وهي حين تعدو عدو الذئاب، ترنو بعيونها الأطراف والأسنة في كل اتجاه .

ثم يقسم بالشُّم من آل يعرب مستفهماً مستنكراً أن هذا نهاية الحلف، فلا قسم آخر يمكن أن يضاهي القسم بهم، وذلك لأنهم بلغوا غاية العز والشرف، كما أن لهم الذروة في المفاخر والتي لا تساميها ذروة ، ولم ولن يصل إلى ما وصلوا إليه أحد في المعالي ، لدرجة أن هذه المعالي تقول لمن يحاول أن يتجرأ على مفاخرة

---

(١)ذو الرمة:ديوان ذي الرمة١/٨١،و(الخاضب):الظليم الذي أكل الربيع فاحمرت ساقاه وأطراف ريشه،(أبو ثلاثين):يريد الظليم،لأنه أبو ثلاثين فرخاً،(السَّيّ):ما استوت من الأرض .

العرب أنهم في الحضيض الأسفل ، يلتصق برغامهم التراب .

ويواصل ابن دريد استرساله في وصف العرب فإن ينابيع الذين أجروا ينابيع الندى، ودوخوا الأعداء، وجرَّعوهم الصاب والعلقم، يقسم ابن دريد بالإبل والخيل، والشم من العرب على أنه سيظل حاملاً سلاحه، الأبيض كالملح، والذي تقفوا المنية أثره فإذا هوى في جثة شطرها نصفين، مصاحباً فرسه المشرف الأقطار المكتنز اللحم ، الموسم بالقوة والشدة، وقد أسرف في ذكر أجزاء جسمه ليدل على اللغوي الواسع ، يقول في وصف هذا الفرس :

و مُشْرِفُ الأَقْطَار خاظٍ نَخْضُهُ حابِي القَصير جُرْشُعُ ، عَرْد النَّسَا. (١)

قَريبُ مَا بَيْنَ القَطَاةِ والمَطَا بعيدُ ما بيْنَ القَذالِ و الصَّلا . (٢)

سامي التليل في دَسيعٍ مُفْعَم رَحبِ اللّبان فـي أَمينات العُجَى . (٣)

---

(١)(مشرف الأقطار)يعنى فرسه،والمشرف:المرتفع العالي،والأقطار:النواحي واحدها قطر ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ﴾ ،(الخاظي): الغليظ المكتنز ،(النحض):اللحم،(الحابي) بالباء المرتفع،(القصير) ضلع في الجنب وهي الضلع السفلي،(الجر شع)الغليظ الأضلاع وهو الشديد من الخيل القصير الأضلاع المتصلة إلى الصلب،وقيل:الجر شع:العظيم الصدر وهو محمود في الخيل،(العَرْدُ):الشديد من كل شيء، (النسا):عرق مستبطن الفخذ يمر بالساق والعرقوب حتى ينتهي إلى الرسغ .

(٢)(القطاة):العجز ما بين الوركين أو مقعد الرديف من الفرس،(المطا):هو الظهر كله وسمى كذلك لأنه يُمْطى أي يُركب(القذال):جماع مؤخر رأس الفرس ومعقد عذاره،أي ينعقد عذاره خلف ناصيته وهو ما بين الأذنين،(الصلا):العجز وهو آخر الوركين.

(٣)(السامي):العالي المرتفع (التليل):العنق،وسُمى تليلا لأنه يُتلُّ منه أي يصرع،(الدسيع):مغرز العنق في الكاهل والدسيعة بالتاء في غير هذا الموضع:المائدة الكريمة، (المفعم) الممتلئ،(الرحب):الواسع،(اللّبان):الصدر، و(الأمينات):القويات الصحاح سالمات الصلاب، واحدتها أمينة، و(العجى):واحدتها عجاية بالضم وهي عصب مركب فيه فصوص كفصوص الخاتم تكون عند رسغ الدابة، أو كالعصبة في يد أو رجل أو عصبة في باطن الوظيف من الفرس تجمع على عُجَىً وعُجْيٌ .

يستغرق في ذلك من البيت السابع والسبعين، إلى نهاية التسعين حاشداً في تلك الأبيات الألفاظ الغربية، منتهجاً في ذلك منهج أبي العلاء المعري في لزومياته، وما فعله الحريري في مقاماته من حشد للغريب من الألفاظ، فهو يعمد إلى وصف مؤخرة فرسه بالتقارب للقوة والمتانة كما إنه يوضح بعد المسافة ما بين رأسه إلى عجزه لاكتمال جماله بطول عنقه، ثم يعمد بعد ذلك إلى وصف عنق الفرس بالسمو والارتفاع وغرزه بالامتلاء وصدره بالرحابة والاتساع وأعصابه بالقوة والثبات ، بعيدة عن الخور والضعف.

وعلى الرغم من ذلك كله نكاد نلمح شاعر يته تأبى إلا أن تظهر من خلال قبضته اللغوية الصارمة، تلوح في أبيات قليلة في هذا الجزء من ذلك قوله :

يَرْسُبْنَ فِي بَحْرِ الدُّجَا وبِالضُّحَى ... يَطْفُـونَ في الآلُ إذَا الآلُ طفا . (١)
أَخْفَافُهُـنَّ مـن حَفاً وَمِنْ وَجَـىً ... مَرْثُومَةٌ تَخْضُبُ مُبَيضَّ الْحَصَـا . (٢)
يَحْمِلْنَ كُلَّ شَاحِـبٍ مُحْقَـوْقِفٍ ... مِنْ طُوَالِ تَدْآبِ الغُدُوِّ والسُّـرَى . (٣)

ثم نرى الشاعر بعد تعرضه لوصف النوق، يعمد بعد ذلك إلى وصف حجيج بيت الله الحرام هؤلاء الحجيج الذين اتخذوا من هذه النوق وسيلة في

---

(١)(يرسبن) يغبن،والرسوب:الغوص في الماء والمغيب منه إلى أن يبلغ قعره،(بحر الدجى) شبه الليل بالبحر والنوق بالسفائن ترسب في قاعه وفي النهار تطفو فوقه،و(الدجى):الظلمة،وهوجمع واحده دجية(الضحى) بضم الضاد مقصور هو طلوع الشمس وإشراقه (يطفون):أي يعلون والطافي فوق الماء المرتفع،(الآل):ما رفعته الشمس غدوة .

(٢)(الأخفاف) للإبل بمنزلة الحوافر للخيل والواحد "خُفّ".(الحفا): مقصور، رقة أخفاف الإبل وحافر الدابة من كثرة المشي، و(الوجا):بالجيم وفتح الواو مقصور، وجع في الرجل يصيبها من الحفا،و(مرثومة):مشقوقة من الحجارة،وقيل:مكسورة،و(تخضب): تصبغ، و(الحصا):جمع حصاة مثل قطا و قطاة .

(٣)(الشاحب):المتغير اللون من السفر أو التعب أو شظف العيش،(المحقوقف):المعوج الذي انحنى ظهره، يقال احقوقف يحقوقف احقيقافاً إذا انحنى،و(التدآب):المداومة والعادة، يقال دأب يدأب دأباً ودؤباً وتدآباً، و(الغدو): سير النهار، و(السرى): سير الليل .

القيام بفريضة الحج ، فهؤلاء الحجاج قد اعتورهم الضمور والانحناء بسبب شظف العيش الذي صاحبهم في رحلتهم ، وبسبب شدة حرارة الصحراء الرمضاء ، وكذلك طول السفر وبعد الشقة .

وقد وفق في اختياره لكلمة:"محقوقف"هذه الكلمة الغربية، التي توحي بالمعنى لما فيها من طوال، وانحناءات صوتية، أو كلمة"تدآب" التي آثرها على الدأب، لما توحي به أيضاً من سفر متصل .

وما أروعه عندما جعل من "الدُّجى بحراً، والترجيح في قوله:" يطفون في الآل إذا طفا "، والدَّم الذي يخضب الحصا الأبيض في قوله:"مرثومة تخضب مبيض الحصا"، ثم يأتي بصورة رائعة بعد ذلك عندما يصور سيفه الذيي يرشد المنون إلى طرق الهلاك فهو يبصرها طرقاً خفية في ظُلَم الأكباد لا يمكن أن تراها بغيره فهو يقول:

يُـرِي الْمَنُونَ حِينَ تَقْفُـو إِثْرَه فِـي ظُلَـم الأَكْبَـادِ سُبْـلاً لا تُـرَى. (١)

ولو ترك نفسه على سجيتها كما فعل في الأجزاء التي شكا فيها أو افتخر لنجا من تلك المز الق التي تردى فيها، كالمبالغة التي تصل إلى حدَّ الكذب كما في قوله عندما قام بوصف الفارس يقول ابن دريد :

لَوْ مُثِّل الحَتْفُ لَهُ قِرْناً لَماَ صَـدَّتْهُ عَـنْه هَيْبَـةُ ولا انْثَنَـىَ. (٢)

ولَوْ حَمَى المِقْدَارُ عَنْهُ مُهْجَةً لَـرَامَهَـا أَوْ يَسْـتَبِيحَ مَـا حَمَـى. (٣)

تَغْدو المَنَايا طَائِعَاتٍ أَمْرَهُ تَرْضى الذي يَرْضَى وتَأْبى ما أَبَـى. (١)

---

(١)(المنون):هنا المنية، و(تقفو): أي تتبع، و(السبل): الطرق واحدها سبيل .

(٢)(لو مثل الحتف):أي صُوِّرَ ،و(الحتف):الهلاك، و(القرن): الذي يقارنك في بطش أو قتال أو علم،و(صدته):منعته،ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، و(هيبة):أي مخافة،والهيبة:أن يَعْظُمَ الإنسان في عينيك وتهابه حتى تخافه، و(انثنى):رجع،والانثناء الرجوع عن الشيء والانصراف عنه .

(٣)(المقدار):هو القدر يعني قدر الله ﷻ ،و(المهجة):هي النفس، وجمعها مُهَجٌ، و(رامها): طلبها وأدركها، و(يستبيح):يدرك ذلك الشيء نافذاً أمره فيه .

وصف فرسه :

لَوِ اعْتَسَفْتَ الأَرْضَ فَوْقَ مَتْنِهِ يَجُوبُها ما خِفْتَ أَنْ يَشْكُو الوَجَى. (٢)

ونرى الشاعر في هذا البيت يستعرض أوصاف فرسه الجسمانية، فهذا الفرس قوي قادر على تحمل الشدائد والمصاعب، فهو لا يشكو الحفا أو الوجى، ولو أن الظروف فرضت عليك أن تسلك الطرق الوعرة المجهولة لساعدك في اجتيازها، وجوبانها دونما خوف أو اعتداد بحفىً، أو وجى، وذلك لمتانة حوافره وشدة قوائمه .

وتظهر ملامح التأثر بالساقين في الجانب التصويري والخيال، كما يبدو اعتماده على الخيال الثانوي، على نحو ما نرى من قوله :

لَوْ مُثِّلَ الحَتْفُ لَهُ قِرْناً لَمَا صَدَّتْهُ عَنْهُ هَيْبَةٌ وَلا انْثَنَى .

فهذا البيت يبدو فيه الشاعر متأثراً بعنترة العبسي، إذ هو إعادة لنظم المعنى يقول عنترة :

إِنَّ المَنِيَّـــةَ لَوْ تُمَـــثَّلُ مُثِّلَــتْ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَنْكِ المَنْزِلِ . (٣)

وكذلك قوله :

---

(١)(تغدو):تأتي بالغدوة مبكرة إليه، ويروى تعدو بالعين المهملة، ومعناه تسرع إلى طاعته وتبادر إلى إرادته، و(تأبى):تكره . اعتسفت وتعسف أو خبط على

(٢)(اعتسفت الأرض): يقال عسف عن الطريق مال وعدل وكذلك اعتسفت وتعسف أو خبط على غير هداية يريد قطعت الأرض أي سرت فيها باعتساف منك، والاعتساف ضد الرفق وهو المشقة،و(متنه):ظهره،و(يجوبها):يقطعها ويخرقها ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ ، و(الوجي):الحفا أو أشد منه أو أن يبلغ الوجع إلى باطن الرسغ.

(٣)عنترة بن شداد:ديوان عنترة تحقيق عبد المنعم عبد الرءوف شلبي،تقديم إبراهيم الإبياري ص١٦١،طبعة الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠١م، مكتبة الأسرة .

يَجْرِي فَتَكْبُو الرِّيحُ فِي غَايَاتِه حَسْرَى تَلُوذُ بِجَرَاثِمِ السَّحَا(١).

فهذا البيت أخذه من قول زهير ابن أبي سلمى في وصف الريح (٢):

*** حَسْرَى تَلُوذُ بِأَكْتَاف الجَلَامِيدِ ***

هذا إلى جانب أن صوره في هذا الجزء اللغوي مألوفة، طالما رددها غيره من الشعراء، وليس لابن دريد من فضل غير إعادة صياغتها، وينتهي هذا الجزء الوصفي بالعودة إلى نفسه، وهذه إحدى ميزاته، فهو يتحدث عن الشيء حتى ليخيل للإنسان أنه قد خرج عن موضوعه الأول ثم لا يلبث في النهاية أن يربط الشيء المتحدث عنه بنفسه، ومن ثم فإنه يربط أجزاء القصيدة بعضها إلى بعض فيحقق لها الوحدة، لذلك نراه بعد أن يطيل الحديث في وصف الإبل والحجيج والخيل وآلات القتال، وفرسه الذيي يعتز به يقول في بساطة :

هُمَا عَتَادِي الكَافِيانِ فَقَدْ مَنْ أَعْدَدْتُهُ فَلْيَنْأَ عَنِّي مَنْ نَأَى. (٣)

ويصل هذا البيت بأبيات يلتبس فيها هيئة الفرسان في المَاضي من أمثال عنترة، أو عباءة الثوار من أمثال الملهب بن أبي صفرة، أو أبي حمزة الخارجي، ولا أدرى هل كان يضم بين جوانحه ثورة على أنظمة الحكم القائمة في عصره،

---

(١)(تكبو) تعثر لوجهها لسبق الفرس إياها وإنما هو مثل (الغايات):جمع غاية وهى منتهى جريه (حسرى):منكشفة قال الله تعالى: ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (تلوذ)تلجأ (الجراثيم):جمع جرثومة وهو التراب الذي يجتمع في أصول الشجر ، والجراثيم أيضاً الأصول واحدها جرثومة،(السجا):ضرب من الشجر .

(٢)زهير بن أبي سلمى:شرح ديوانه، بصنعة ثعلب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٣ هـ /١٩٤٤ م، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة .

(٣)(هما) يشير إلى صاحبيه وهما، السيف والفرس (العتاد):ما يتخذ عدة للدهر ويهيؤ بحضرة من يتخذه يقال عتد الشيء يعتد فهو عتيد إذا حضر قال الله ﷻ: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ،(الكافي):المغنى،(فلينأ):أي فليبعد من نأى إذا بعد .

أو كانت به رغبة في أن يكون ملكاً أو أميراً وهو ليس أقل شأناً من أمراء الإقطاعيات أو الدويلات في عصره وهو نوع من " التعويض النفسي " لما افتقده، أو عجز عن الوصول إليه في عالم الحقيقة والواقع، وقد يقال إنه لا يريد من ذلك سوى أن ينقل إلى القصيدة نكهة البادية بما من حروب، ولو أراد ذلك فقط لما تصور نفسه ذلك البطل الثائر حتى إنه ليقول :

فإنْ سَمِعْتَ بِرَحَىً مَنْصُوبَــةٍ   للْحَرْبِ فَاعْلَمْ أَنَّني قُطبُ الرَّحَى . [1]
وَإنْ رَأَيْتَ نَارَ حَرْبٍ تَلْتَظِي   فَاعْلَمْ بِأَنِّي مُسْعِرٌ ذَاكَ اللَّظَــى . [2]
خَيْرُ النُّفُوسِ السَّائِلاَتُ جَهْرَةً   عَلَى ظُبَاتِ الْمُرْهَفَاتِ والقَنَــا . [3]

فهو يفتخر بأنه فارس الميدان لا يعتمد إلاَّ على نفسه، ولا يركن إلى أحد آخر، كما إنه خير النفوس وخير الماء التي تسيل في مواطن الحرب على ظبات السيوف والرماح .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

رابعاً : المــدح في المقصورة

---

(١)(برحىً منصوبة):يريد برحى الحرب، وهو موضع استدارة أهلها إذا تعاركوا، وقد يراد بالرحى التي يُطْحَنُ عليها، و(القطب):الحديدة،أو الخشبة التي تدور عليها، وأنشد:

فَدُرْنَا كَمَا دَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى   وَدَارَتْ عَلَى هَامِ الرِّجَالِ الصَّفَائِحُ

(٢)(تلتظي):تشتعل، و(مُسْعِرٌ):موقد، و(اللظى):اللهب .

(٣)(السائلات):جمع سائلة والمراد بها المراقة، وإنما المراد الدم، و(جهرة):عياناً، و(الظبات):جمع ظبة،وهي حد السيف،و(المرهفات):السيوف الرقاق،واحدها مرهف، و(القنا):الرماح، واحدها قناة .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

يمهد الشاعر لهذا الغرض، وقبل أن يخوض فيه قام بوصف مسيرة إلى فارس ومفارقته العراق وأهله لا عن قِلىً وبُغْض، فهم في سمو المكانة وعلو الشرف كَذُرَى الجبال الشامخات، وفي الكرم والجود كالبحور المتلاطمة الأمواج، يقول :

وَإِنَّ العِرَاقَ لَمْ أُفَارِقْ أَهْلَهُ عَنْ شَنَآنٍ صَدَّنِي ولاَ قِلَى[(١)]

وَلاَ اطَّبَى عَيْنَيَّ مُذْ فَارَقْتُهُمْ شَيْءٌ يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْ هَذَا الوَرَى[(٢)]

هُمُ الشَّنَاخِيبُ المُنِيفَاتُ الذُّرَى والنَّاسُ أَدْحَالٌ سِوَاهُمْ وَهُوَى[(٣)]

هُمُ البُحُورُ زَاخِرٌ آذِيُّهَا والنَّاسُ ضَحْضَاحٌ ثِعَابٌ وأَضَى.[(٤)]

إنْ كُنْتُ أَبْصَرْتُ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ مِثْلاً فَأَغْضَبْتُ عَلَى وَخْزِ السَّفَا.[(١)]

---

(١)(العراق):بلاد من عبادان إلى الموصل طولاً، ومن القادسية إلى حلوان عرضاً،وسميت العراق عراقاً لأنها شاطئ دجلة والفرات،و(لم أفارق):لم أزايل،و(أهله):سكانه،و(الشنآن): البغض،يقال:شناءان وشنآن وشنأ،و(صَدَّنِي):منعني وصرفني،ويروى عن شنأ أَصَدَّنِي،يقال: صده وأصده بمعنى واحد، قال الشاعر : أَصَدَّ نَشَاصُ ذِي القرنين حَتَّى تَوَلَّى عَارِضُ المُلْكِ الهُمَامِ
القلي:البغض .

(٢)(ولا اطبى):ولا دعا ولا استمال،(يروق):يعجب،(الورى):الخلق .

(٣)(الشناخيب) أطراف الجبال واحدها:شنخوب،و(المنيفات):المرتفعات الطوال الشواهق، والشواهق جمع شاهق،وهو ما شهق من الجبال،أي طال،و(الذُّري):جمع ذروة وهي أعلى الجبل،و(الأدحال):جمع دحل وهي الحفير الغامض من الأرض يتسع أسفله ويضيق أعلاه، و(هوى):أي لا يساوون شيئاً .

(٤)(الزاخرات):جمع زاخر،والزاخر الماء الكثير الفائض،يقال:زخر البحر،إذا كثر ماؤه وارتفعت أمواجه،و(الآذِىَ):الموج جمعه أواذي،و(الضحضاح):الماء القليل لا عمق له يكون إلى الكعبين وأنصاف الساقين(الثعاب)جمع ثعب،وهو الموضع المطمئن في أعلى الجبل ليستنفع فيه ماء المطر(الأضى):جمع أضاة،وهي الغدران الصغار.

وهو ينفي عن نفسه البغض لأهل العراق، فهم ليسوا مَصْدر ثورته، فمصدر ثورته هم الحكام، حقاً لم يصرح بذلك، ولكننا نستنتجه استنتاجاً من خلال مدحه لأهل العراق في أكثر من موضع في هذه المقصورة، ومما قيل من أن الخليفة المقتدر لم يكن على معرفة به، وهو من هو علماً وأدباً ولم يعرفه إلا بعد أن سمع بمكانته، وبأن علي بن محمد أنزله في جواره، وأغدق عليه، فأجرى عليه الخليفة في كل شهر خمسين ديناراً [٢].

ومدحه لأهل العراق يكشف عن حب صادق، فهو يقول إنه لم يفارقهم عن شنآن أو بغض – كما أشرت – ولم ير بعد أن فارق بلاده – ما يروقه أو يصرفه عن هذا الحب، وإذا كانوا هم كقمم الجبال، فبقية الناس، كالحفر، والهُوَى العميقة المظلمة، بل هم البحر الطامي، والناس ماء ضحل قليل الغور، ولم ير شبيهاً لهم فى الحياة يقول ابن دريد :

حَاشَا الأَمِيَرِيْنِ اللَّذَين أَوْفَدا عَلَىَّ ظِلاًّ مِنْ نَعِيمٍ قَدْ صَفَا . [٣]

وبهذا التخلص الرائع يبدأ الشاعر في مدح ابني ميكال وخلع الصفات الجميلة عليهما، فهما اللذان حققا له جانباً من جوانب الرجاء، وأَسْنَيا له معروفاً يعجز عن شكره أهل الأرض جميعاً،ثم يظهر الشاعر تواضعاً معترفاً بالجميل،ويصرخ مبدياً أنه كان كالشيء المهمل الذي لا قيمة له ثم بعد ذلك يقوم الممدوحان بانتشاله من براثن المجهول، ويكرمانه فابن ميكال بدأ بالمعروف معه.

ويواصل الميسرة ابنه أبو العباس ذالكم الشاب الكريم الذي يقدم له الندى القريب والبعيد :

---

(١)(أغضيت):صبرت على المكروه،أي أغمضت عيني وسددتها والإغضاء: الصبر على المكروه، (الوخز):طعن غير نافذ وقيل الوخز الطعن بسرعة،وقيل:الوخز الشوك،و(السفا):شوك البهمي.

(٢)البغدادي: خزانة الأدب : ١/٤٩٠ ، ٤٩١ .

(٣)(أوفدا):أي أرسلا،يقال:أوفد فلان فلاناً أي أرسله،و(ضفا):أي كثر من قولهم:ضفا ذيل الفرس إذا كثر وطال، ونعم ضافية:أي كثيرة .

لَـوْكَـانَ يَرْقَـى أَحَـدٌ بِجُـودِهِ وَمَجْـدِهِ إِلى السَّـمَاءِ لارْتَقَـى .(١)

فهو يفدي أميريه بنفسه، بل يفديها بالعمل، إن ابن دريد شاعر إذا أحب أسرف في الحب، وإذا بغض أسرف في البغض، ويعود الشاعر ليكرر أن الممدوحين قد حققا أمله، بعدما كان على مشارف هوة الضياع، وأصابه اليأس، فكانا له النور الذي أخذ بيده إلى طريق الأمل والحياة الكريمة ، وخلصاه من ضنك العيش، فصفت له الحياة، واخضرَّ عوده بعدما أذواه الظمأ .

ويلتفت ابن دريد بعد ذلك إلى قومه في العراق، فيذكرهم ويعدهم بعدم النسيان مهما عاش قي ترف وسعادة، ثم يندفع في مباهاةٍ وفخر، ويصرح بأن له عزيمة، تحقق له كل رجاء وأمل وطموح، تلك العزيمة التي استطاع بها الوصول إلى ابني ميكال اللذين اعترفا بفضله، ووثقا به، فأسند إليه رئاسة ديوان الإنشاء، بل إن هذه العزيمة تحقق له كل ما يصبوا إليه حتى ولو كانت طموحاته تتمثل في المتع الحسية، لكنه بلا شك يؤثر على هذه المتع الحسية متعة العلم، والمنصب الرفيع الأمر الذي جعله يعيش في ظل الغنى والنعيم .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

خامساً :الغزل في المقصورة

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١)(يرقى):يرتفع ويعلو ،و(الجود):الكرم،و(المجد):معالي الأمور والفضائل .

ثم ينتقل إلى بعض ذكريات الشباب الأثيرة لديه العزيزة عليه، فيتحدث عن فتاة تلاطفه وتداعبه حسناء هيفاء، تضني وتستقم من يقترب منها، فتنأى عنه، وتتدلل عليه، هذه الحسناء لها قدرة عجيبة في الفتك بناظرها ومن يعجب بها .

فهي تملك ألحاظاً جميلة، كما إنها ناعمة لينة غضة إذا مشت تثنت بنعومة جميلة في مشيتها، وهي أيضاً بشوشة مزاحة ضاحكة، فعاشقها يسقم ويمرض إذا تناءت عنه وحرمته من رضابها، ويبرأ إذا حظي بقربها وأغدقت عليه من هذا الرضاب .

ثم يسترسل في وصف جمالها، فهو يقول: إنها تمتلك خدوداً بيضاء تشبه النور اللامع، كما تمتلك ألحاظاً كالسهام الخارقة لكل من ينظر إليها، وهي على جمالها هذا قادرة على استنزال الأوعال من أعالي الجبال، فلها جاذبية ساحرة الألباب تأسر كل مفتون بها، ولها صوت يتسم بالنعومة والحسن .

كما أن وجهها كالروضة الحسناء، وقد جمعت بين جمال الورد ونضرته، ولونه الأحمر وبياض النسرين غير أن جناها يؤخذ بلحظ العين للطفه، ورقته لا يقتطف باليد.

هذه الحسناء لو عرضت على عابد، متنسك، منقطع لعبادة، زاهد في الدنيا، لم يكن منه انصراف عن العبادة فحسب، بل إنه سيصبو إليها، ويفتن بها .

وجدير بالذكر أيضا أن ريقها كالخمر الممزوج بماء الورد الذي تم جنيه ليلاً، حيث النسيم العليل الصافي الذي بلغ الغاية في الرقة واللطف والصفاء، وأن من يقوم برشف ثغر هذه المرأة وريقها إنما يمتص خمراً، يقول ابن دريد مشيراً إلى هذه المعاني :

وَلَوْ أَشَاءُ مَدَّ قُطْرَيهِ الصِّبَا عَلَيَّ فِي ظِلِّ نَعِيمٍ وَغِنَى(١)

وَلاعَبَتْنِي غَادَةٌ وَهْنَانَةٌ تُضْنِي وَفِي تَرْشَافِها بُرْءُ الضَّنَا.(١)

---

(١)(قطريه):القطران:الطرفان والناحيتان والقتر مثله(الصبا):مصدر صبوت صبواً بفتح الصاد والمدّ فأما الصبا بغير مدح، فالريح وسمي الصبي صبياً لأنه يصبو إلى كل لعب، والصابئون قوم لا دين لهم يصبون من دين إلى دين،وقيل يعبدون الملائكة،وقيل: قوم بين اليهود والنصارى يكونون بجزيرة الموصل،و(غنى)مقصور ضد الفقر.

فِي خَدِّهَا رَوْضٌ مِنَ الْوَرْدِ عَلَى الـ ... ـنِّسْرَيْنِ بِالأَلْحَاظِ مِنْهَا يُجْتَنَى .[2]

لَوْ نَاجَتِ الأَعْصُمَ لانْحَطَّ لَهَا ... طَوْعَ الْقِيَادِ مِنْ شَمَارِيخِ الذُّرَى.[3]

أَوْ صَابَتِ القَانِتَ فِي مُخْلَوْلِقٍ ... مُسْتَصْعَبِ المَسْلَكِ وَعْرِ الْمُرْتَقَى.[4]

أَلْهَاهُ عَنْ تَسْبِيحِهِ وَدِينِهِ ... تَأْنِيسُهَا حَتَّى تَرَاهُ قَدْ صَبَا.[5]

كَأَنَّمَا الصَّهْبَاءُ مَقْطُوبٌ بِهَا ... مَاءُ جَنَى وَرْدٍ إِذَا اللَّيْلُ عَسَا.[6]

يَمْتَاحُهُ رَاشِفُ بَرْدِ رِيقِهَا ... بَيْنَ بَيَاضِ الظَّلْمِ مِنْهَا وَاللَّمَى.[7]

سادساً : الحنين إلي أهل العراق

---

(١)(الغادة) الغيداء:المرأة تنثنى ليناً ونعمة،و(الوهنانة):المزاحة الضاحكة،و(تضني)تسقم عاشقها إذا تباعدت، وتبرئ بريقها وامقها، و(الترشاف) : التفعال من رشف،ويقال:رشف يرشف إذا مصَّ رضاب جاريته .

(٢)(النسرين) : النور الأبيض، و(الألحاظ) : النظرات جمع لحظة، و(يُجْتَنَى):يقتطف.

(٣)(الأعصم):الوعل الذي في إحدى يديه بياض،وربما كان البياض فيهما،وسمي وعلاً للبياض الذي في أظلافه،و(انحط):أنزل،و(القياد):التذليل،و(الشماريخ):رؤوس الجبال واحدها شمراخ

(٤)(صابت) : وافقت، و(القانت) : بالعبادة المطيع لله الزاهد فيما يرغب الناس فيه من الدنيا، و(المخلولق) : الجبل الأملس الطويل الذي لا نبات فيه، و(مستصعب) أي الصعب ارتياده وسلوكه (المسلك) الطريق الذي يسلك فيه أي يدخل ويمشى،(المرتقى): المصعد وهو الذي يرتقى إليه،(الوعر):الصعب.

(٥)(ألهاه): شغله، (التسبيح) : التنزيه لله تعالى وهو التبرئة من كل ذم وقد يكون التسبيح بمعنى الصلاة، يقال سبحت أي صليت، و(دينه) : أي طاعته، و(تأنيسها) : أنسها وحديثها، وقوله :حتى تراه قد صبا، أي انطاع لها وفعل فعل الصبيان .

(٦)(الصهباء): الخمر وسميت بذلك لصهوبة لونها، و(المقطوب): الممزوج وكذلك واحد، و(ماء جني الورد) أي ماء جني الورد طرياً أي قطف والجني:اسم ما جني،(عبسا الليل):أظلم .

(٧)(يمتاحه):يستقيه،و(الممتاح):الذي يغرف بيده من أسفل البئر إذا قلَّ الماء، والماتح بالتاء الذي يمد الحبل في البئر ليستقي و(الظَّلم): بفتح الظاء بياض الأسنان حتى كأنها من شدة البياض يعلوها سواد، و(اللمى):سمرة الشفتين، و(الشنب): برد ريقها وعذوبته .

وأماكن اللهو فيها

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

لَقَدْ ذكَرَه هذا الغزل الرقيق وتلك الغادة الحسناء بأماكن اللهو التي كان قد استمتع فيها عندما كان صبياً يافعاً، فهو يدعو لها بالسقيا، لبيان عظمتها عنده، ومحبته لها، لأنها مساكن السادة البواسل الفحول أهل المجد والشرف، وتبدو وتتجلى براعة الشاعر فى تعداده لهذه الأماكن فهو يذكرها موضعاً موضعاً ففي «العقيق» و« الحزيز» و« الملا » و« النُّحَيت » و« القُرَيَّات » و « المربد الأعلى» كان يرى مصارع الأُسُد بألحاظ المَهَا، وفى هذه الأماكن كان يقيم السادة ممن ورثوا المجد عن آبائهم، ويتصل نسبهم بالنسب الطاهر نسب النبي ﷺ ثم يطلب من الله ﷻ الصلاة على رسولهﷺ ما دام الزمنان الليل والنهار يقول:

سَقَى العَقِيقَ فَالحُزَيْزَ فَالمَلاَ ... إِلَى النُّحَيتِ فَالقُرَيَّاتِ الدُّنَا[1]

فَالْمِرْبَدَ الأَعْلَى الَّذِي تَلْقَى بِهِ ... مَصَارِعَ الأُسْدِ بِأَلحَاظِ الْمَهَا.[2]

مَحَلَّ كُلِّ مُقْرِمٍ سَمَتْ بِهِ ... مَآثِرُ الآبَاءِ فِي فَرْعِ العُلا.[3]

مِنَ الأُولَى جَوْهَرُهُمْ إذا اعْتَزُوا ... مِنْ جَوْهَرٍ مِنْهُ النبيُّ المُصْطَفَى.[1]

---

(١)(العقيق):موضع بالبصرة، والعقيق أيضاً موضع حول مكة على أميال منها، والعقيق قرية بالمدينة، و(الحزيز والملا والنحيت):مواضع بالبصرة ونواحيها، و(القريات): جمع قرية مصغرة، و(الدُّنا):ما دنا منها .

(٢)(المربد):موضع بالبصرة، وهو سوق تجتمع فيه العرب، وكان الأخفش سعيد بن مسعدة يقول المربد:بفتح الميم وكسر الباء مثل المسجد على وزن مَفْعِل،و(مصارع الأُسْدِ): مواضع سقوطها عند الموت، و(المها): هي البقر الوحش، الواحدة مهاة، و(الألحاظ):النظرات .

(٣)(المحل):الموضع الذي يحله القوم للمقام فيه أي ينزل به القوم للإقامة، و(المقرم): السيد الكريم،وأصل المقرم فحل الإبل،و(سمت به):أي ارتفعت به،و(المآثر):جمع مأثرة وهي الصنائع الحسنة،والأفعال الرضية،و(فرع):فرع كل شيء أعلاه،ومنه:فرعت الجبل إذا علوته، وفروع الشجرة:أعالي أغصانها، وافترعت المرأة:إذا افتضضتها، وأصله إذا علوتها، والأفرع:طويل الشعر .

صَلَّى عليه اللهُ ما جَنَّ الدُّجَى وَمَا جَرَتْ في فَلَكٍ شَمْسُ الضُّحى.

ثم يستأنف بشعر لا علاقة له بما قبله سوى أنه تمهيد للدخول في مدحهم، فهو يمدحهم بالكرم والندى والجود، وأنهم بهذه الصفات يماثلون الغيث أو السحاب الممتلئ الذي يحمل الماء، هذا السحاب تحمله رياح الجنوب والصبا .

كما يصف الجون الذي أمدته ريح الجنوب بمائها، وأدامته رياح الصبا، فأقبل من جهة اليمن، فعم بأحضانه كل النواحي، وانتشر في الأرجاء والبطاح، وامتدت أذياله وستر كل ما علاه، ولم يصل الأمر إلى هذا الحدِّ فحسب، بل إن هذا السحاب قام بتغطية كل الآفاق، وساق إليها المطر، لدرجة أنه لم تبق ناحية إلاَّ وسقاها السحاب الماطر، وكأنه وابل عمَّ الأرجاء، وكل مكان تراه ينطق ويتحدث لغزارة جوده، وأنه وحده الذي ثوى فيه الغيث وأصابه، وإنما كان ذلك لكثرة ريعان أرضه، وامتداد ثمارها، ووفرة زر وعها وخصبها؛ لارتوائها بالغيث وزيادتها فيها، يقول ابن دريد مبيناً ذلك:

جَوْنٌ أَعَارَتْهُ الجَنُوبُ جَانِباً مِنْهَا وَوَاصَتْ صَوْبَهُ يَدُ الصَّبَا(٢).
نَأَي يَمَانِيًّا فَلَمَّا انْتَشَرَتْ أَحْضَانُهُ وَامْتَدَّ كَسْرَاهُ غَطَا .
فَجَلَّلَ الأُفْقَ فَكُلُّ جَانِبٍ مِنْهَا كَأَنْ مِنْ قَطْرِهِ الْمُزْنِ حَيَا (٣).

---

(١)(من الأُولَى):أيمن القوم الأولين، و(جوهرهم):أصلهم، وجوهر كل شيء خالصه، و(إذا اعتزوا):أي إذا انتسبوا،يقال اعتزيت إلى فلان أي:انتسبت إليه،و(المصطفى): المختار .

(٢)(الجون):من الأضداد،أي يكون الأسود،ويكون الأبيض،و(الجنوب):الريح القبلية تجئ بالمطر، و(واصت):واصلت، يقال واصاه وواصله بمعنى واحد،و(الصوب):نزول المطر، يقال:صاب يصوب صوباً والاسم الصيب قال الله ﷻ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾، (الصبا): الريح الشرقية.

(٣)(جَلّل) غطى،ومنه سمي جل الفرس جلاً لأنها تجلل به أي تغطى به،(الأفق):الناحية،وجمعه الآفاق وأراد الآفاق لقوله فكل جانب منها،و(من قطره):أي من ناحيته وجمعه أقطارعلى رواية من رواه بضم القاف، أما إذا كانت القاف مفتوحة فهي الماء السائل تقطعاً،و(حبّاً):بالباء بمعنى:امتدودنا من الأرض لثقله بالماء يريد السحاب، أما إذا كانت (حياً):أي تقديره غطى هذا السحاب الأفق .

ويسترسل الشاعر بعد ذلك في وصف السحاب الذي تسوقه الريح، فيقول إن هذا السحاب دائم المطر دائم الومض، لا تكف سماؤها عن الهطول، ولا رعوده عن البروق .

كما أن هذا السحاب تؤثر فيه ريح الصبا الشرقية والجنوبية فينتصب ربيعاً غدقاً، فالصبا تديم بروقه إن خبا وميضها، والجنوب تتابع رعوده وتحدو بها إذا ونت عن الزئير، فهو يصور صوت رعود هذه السحب بحداء الإبل التي تتلاءم وحداء الراعي، وتلك تتبع حداء رياح الجنوب التي ترعاها، أو أن هذه السحب تتبع سائقها .

ثم يصف الرعد ويصوره بصوت الإبل عند الحنين، فكأن هذه السحب المرعدة تضم بين جوانحها أو أعجازها وصدورها إبلاً يدعو بعضها بعضاً بأصوات عذبة شجية تتماثل وصوت الإبل .

والشيء اللافت للنظر إن ضروع هذه الإبل ممتلئة باللبن لدرجة أن الناظر إليها ليظن أن ثمة راع يقوم برعايتها، ويحسن خدمتها، والقيام على أمرها، والحقيقة إنها تركت بلا راع مهملة .

وَطَبَّقَ الأَرْضَ فَكُلُّ بُقْعَـــةٍ ... مِنْهَا تَقُولُ : الغيثُ في هاتا ثَوَى. (١)
إذا خَبَتْ بُروقُه عَنَّتْ لَهَا ... رِيحُ الصَّبَا تُشبُّ منها مَا خَبَا. (٢)
وإنْ وَنَتْ رُعُودُهُ حَدَا بِهَا ... رَاعِي الجَنُوبِ فَحَدَتْ كَمَا حَدَا. (٣)
كَأَنَّ في أَحْضَانِهِ وَبَرْكِـــهِ ... بَرْكَاً تَدَاعَى بَيْنَ سَجْرٍ وَ وَحَى. (٤)

---

(١)(وطبق الأرض):غطى الأرض هذا السحاب فصار لها كالطبق،و(كل بقعة):أي كل مكان، و(هاتا):أي في هذه البقعة وهو بمنزلة هذا للمذكر، و(ثوى):أقام .

(٢)(خبت بروقه):أي أُطْفِئت وسكنت،قال الله ﷻ: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾، و(عَنَّتْ): عرضت،(تشبُّ) : توقد .

(٣)(وإن ونت):أي ضعفت وفترت ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾أي لا تضعفا ولا تفترا و(حدا بها) أي ساقها بالحداء،وهو صوت السائق الذي يسوق الإبل،والحادي: سائق الإبل يرفع صوته وراءها بالغناء، و(الراعي):الذي يرعى الإبل أي يحفظها، وسمي راعي الجنوب:لأنه هو الذي يواليها ويرعاها بما تحتاجه و(الجنوب):الريح القبلية.

(٤)(كأنَ في أحضانه):أي في أحضان فالضمير في أحضانه عائد على الأفق،وإن شئت كان عائدا على السحاب وهو أحسن،وأحضانه نواحيه من أطرافه،والبرك الأول:الصدر، (البرك الثاني): الإبل، (تداعى)أي تتداعى فحذف أحدج التاءين والتداعي هو أن يدعو بعضها بعضا،(الشجر) :الحنين طرب الناقة إلى ولدها وهو صوت شجر، (الوحي):الصوت .

لَـمْ تَـرَ كالْمُزْنِ سَوَامـاً بُهَـلاً   تَحْسَبُهَـا مَرْعِيـةً وَهِـيَ سُـدَى (١)

يمضي في وصف هذه السحب والأمطار والبروق والرعود، وأثر هذا كله في الربا والوديان، إذ إنه عمها وملأ المنخفضات وأروها بالماء الوفير الكثير المشبع، وَمِنْ ثَمَّ لم يترك بقعة إلاَّ وقد هطل فيها المطر، ووافاها غدقة كبحر لجي ترتفع أمواجه تارة ثم تسكن تارة أُخْرى، هذا العطاء الفياض والخير العميم ، والنوال المغني مما لا يصدر إلا من قوم مختصين به، جعلهم الله سبحانه غيوث الأرض، ومن عليها من الجدب، وغناء من الفقر والاحتياج ، يقول ابن دريد :

تَقُولُ لِلأَجْرَازِ لَمَّا اسْتَوْسَقَتْ   بسَوْقِهِ ثِقِي بِرَيٍّ وَحَيَا .(٢)
فَأَوْسَعَ الأَحْدَابَ سَيْباً مُحْسِباً   وَطَبَّقَ البُطْنَانِ بِالماءِ الرِّوَى. (٣)
كَأَنَّمَا البَيْدَاءُ غِبَّ صَوْبِهِ   بَحْرٌ طَمَا تَيَّارُهُ ثُمَّ سَجَا. (٤)

---

(١)(المزن):السحاب، و (السوام):الإبل الراعية، والمسيم:الراعي للإبل السائمة، يقال:أسام الإبل يسميها إسامة وسوماً، ومنه قوله ﷻ: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ،أي ترعون إبلكم، و (بُهَلاًّ): البهل هي التي لم تحلب، فتركت ضروعها ملآى من ألبانها، وقيل:البهل المتروكة بغير راعٍ،و (تحسبها مرعية):أي محروسة،و (السدى):المهملة التي لا راعي لها،ومنه قوله ﷻ: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ،ويروى:سواماً هملاً أي متروكة .

(٢)(الأجراز):جمع جرز ،وهى الأرض الصلبة التي لم يصبها المطر ،وقيل هي الأرض المشقة التي لا تكاد تروى من الماء قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ وجمعها أجراز ،(استوسقت):أي حملت ما يكفيها من الماء،(الو سق):الجمع قال تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ ،(ثقي بِرَيٍّ) ما يكفيها من الماء،(الوسق):أي
اطمئني بريٍّ أي بشبع من الماء،(حيا):أي خصَب،وهو مقصور .

(٣)(الأحداب):جمع حدب وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ ، قال تعالى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ ، (السيب):العطاء،(المحسب):الكافي،من قولك حسبنا الله أي كافينا الله،(طبَّق):غطى وستر ،(البُطنان): جمع بطن وهو الغامض من الأرض، (الرِّوى)إذا كسر قصر ،وإذا فتح مد.

(٤)(البيداء):القفر وهى الصحراء،(غِبَّ صَوْبه)عقب مطره،وانتصب غبَّ على الظرف وهو من ظروف الزمان(الصوب)نزول المطر (طما):ارتفع تيار موجه،(سجا):أي سكن ومنه قوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾

(١)(الجدا):النائل والعطاء، أو المطر العام الذي يغاث به الناس والدواب والأنعام، وربما كان (الجدا) الأول بمعنى المطر الواسع، أما (الجدا) في القافية بمعنى العطاء .

فالشاعربعد أن يصف السحاب في أحد عشر بيتاً – يجعل البيت الذي بعدها مدحاً لابني ميكال، فهو يقرر أن هذا الجود الذي نحسبه مختصاً بالمطر، لا يزال إلى الآن قوم مختصين به، جعلهم الله سبحانه غيوث الأرض وغناها ومفرجي كرباتها، يقول ابن دريد :

ذَاكَ الجِدَا لا زَالَ مَخْصُوصاً بِهِ قَوْمٌ هُمُ لِلأرْضِ غَيْثٌ وَجَدَا . (١)

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

سابعاً : الفخــــر بتجــاربــــه في المقصورة

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

تبدو براعة الشاعر في حسن تخلصه، فهو يُعَدَّ من أنجح الشعراء في حسن التخلص من غرض إلى غرض، وذلك لأنهم أرجعوا التخلص إلى مقدرة الأديب نفسه، وآمنوا بتفاوت الأُدباء فيه[1]، كما أن التخلص عند النقاد يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه وقدرته، وطول باعه[2]، وقد وضع النقاد لحسن التخلص ضوابط وحدوداً ينبغي السير على منهجها و إلاَّ جاء الشعر معيباً .

ولعل من أبرز الضوابط التي وضعت لحسن التخلص ما نص عليه الحموي بقوله: « حسن التخلص هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من المعنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلاَّ وقد وقع عليه الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد، ولا يشترط أن يتعين المتخلص منه، بل يجري ذلك في أي معنى كان، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف روض أو وصف طلل أو ربع خال أو معنى من العاني يؤدى إلى مدح أو هجو أو وصف حرب أو غير ذلك، ولكن الأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح »[3].

وتأسيساً على ما سبق ذكره يمكن القول إن ابن دريد قد ترسم خطى السابقين،

---

(١)العلوي (يحيى بن الفضل ت٧٤٩ هـ):الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣٣١/٢ ، ١٧٩/٣ ، تصحيح سيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف بمصر ١٩١٤ م .

(٢)ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري ت٦٣٧ هـ):الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٨١ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٣٩ م .

(٣)ابن حجة الحموي (أبو بكر بن علي بن عبد الله ت ٨٢٧ هـ)خزانة الأدب وغاية الأرب ٣٩٩/٢ ، تحقيق الدكتورة كوكب دياب، دار صادر، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م، بيروت .

وسار على هديهم؛ إذ وجدناه يسير في مقصورته سيراً تلقائياً يشبه أن يكون من قبيل ما يطلق عليه« التداعي الحر» إلا في بعض المواطن اليسيرة كالأجزاء التي يحمد فيها الوصف، ونعني بالوصف، وصف الإبل، والخيل، وأدوات القتال ولكنه في الأبيات التي تبدأ بالبيت الثاني والأربعين بعد المائة والذي يقول :

لَسْتُ إِذَا مَا بَهَظَتْنِي عَمْرَةُ مِمَّنْ يَقُولُ : بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى . (١)

فهو في هذه الأبيات يفتخر فيها بصموده، وجلادته، وينتقل انتقالاً فجائياً– على غير عادته –من الغرض السابق، حيث يفتخر بأنه إذا ما شق عليه الأمر، وآذنه الكرب والشدائد، لا يظن أن ذلك هو أشد الأنواع بلاءً، ومن ثم فهو لا يباليها ولا يخشاها، بل يستهين بها وبشدتها، ويلزم الصبر على هذه المكاره، كما أنه قادر على تدبير أموره بحكمة إذا داهمته الهموم والغموم، وعمت أرجاء حياته، وغطت سماواته، دونما أن تصدر منه زفرات الأحزان، لدرجة أن الهم العظيم الذي يمكن أن يفتك بالمرء وأن ينجرف في طياته، ليُرى مستذلاً خاضعاً لا يؤثر فيه، ولم ينل من عزيمته شيئاً، أو يغير من طبيعته .

ثم يواصل حديثه في الفخر بنفسه مبيناً أنه كثير الاحتمال للنوائب التي تصيبه، وأكبر دليل على صدق قوله أنه لا يشكو إذا حلت به نائبة، غير قانط لا يتحدث عنها حديث اليائس، بل يواجهها برباطة جأش، ولا يردد القول الشائع الذي يردده الناس في مثل هذه الظروف، مثل قولهم : « انقد في البطن السَّلا »، من شدة الجزع، وخوفاً من الهلاك .

فهو صلب العود فارساً شجاعاً أمام هذه النوائب، لا يتطرق اليأس إلى قلبه وعزيمته، ولا يعرف الخور والضعف سبيلاً إلى قلبه، يتلقى الأهوال الفادحة بثبات ويغالبها، وإن الخطوب لتعرف ذلك فيه لكثرة ما جربته .

---

(١)(بهظتني):شقت عليَّ،يقال: بهظني الأمران شق عليَّ، و(الغمرة):الكربة والشدة وهي واحدة الغمرات، و(الزُّبَى):جمع زبية، وهي حفرة تحفر للأسد في المكان العالي من الأرض،وليس يبلغها إلا سيل عظيم،(وبلغ السيل الزبى): مثل تضربه العرب إذا اشتد بأحدهم الأمر .

ثم نراه بعد ذلك يتحدث عن منهجه في طرائق معاملة الناس، فهو يعامل كل إنسان بطريقة خاصة تلائمه وتتناسب وعقليته، فهو يقسو على أعدائه، ويحنو على أحبائه وأصدقائه .

والمتأمل في حديثه عن الفخر يدرك أنه كان انتقالة فجائية بعد مدح آل ميكال بالكرم، متحدثاً عن نفسه؛ ليتخذ من ذلك وسيلة لبث بعض الحِكَمِ المألوفة، كما أشرت مسبقاً، كما إنه يطيل الحديث عن أخلاقه ومعاملته للناس،« فالناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم »، كما إنهم كالنبات منه الحلو الذي لا يروق مظهره، والمر الذي يخدع ويروق، والشباب بَعْدُ قابل للتثقيف والتقويم، هذا بخلاف الشيوخ الذين لا يصلح معهم ذلك، فهو يطيل أيضاً الحديث عن الحكمة، ويستغرق قرابة خمسين بيتاً، وسيأتي الحديث عنها .

وعلى أية حال فإن حديث الفخر في هذه المقصورة حديث يغلبه الإنشائية، ونبرة الأنا فيه مخفضة، وكان حريّاً به أن يقوم باستقصاء الجوانب المادية التي تبدو من خلالها تلك النبرة يقول ابن دريد :

لَسْتُ إِذَا مَا بَهَظَتْنِي غَمْرَةٌ ... مِمَّنْ يَقُولُ : بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى .
وَإِنْ ثَوَتْ بَيْنَ ضُلُوعِي زَفْرَةٌ ... تَمْلأُ مَا بَيْنَ الرَّجَا إِلَى الرَّجَا . (١)
نَهْنَهْتُهَا مَكْظُومَةً حَتَّى يُرَى ... مُخْضَوْضَعاً مِنْهَا الذي كَانَ طَغَا . (٢)
وَلاَ أَقُولُ إِنْ عَرَتْنِي نَكْبَةٌ ... قَوْلَ القَنُوطِ انْقَدَّ فِي الْجَوْفِ السَّلاَ . (٣)

---

(١)(ثوت):أي أقامت،(الزفرة):والزفير ترجيع الصوت بالبكاء وهو أن يمتلئ القلب همًّا وغمًّا، و(الرَّجَا): مقصور الجانب .

(٢)(نهنهتها):أي كفكفتها وزجرتها، و(مكظومة):أي متجرعة من قولهم:كظم غيظه:إذا رده وحبسه قال تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ ،و(المخضوضع):المتذلل من الخضوع وهو الذلة،و(طغى):كثر وزاد،كقوله تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ ،وقيل تكبر وهو المناسب للمخضوضع .

(٣)(عرتني):واعترتني واحد،أي أصابتني،كقوله تعالى: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ ﴾ ، و(النكبة):المصيبة،وجمعها نكبات، و(القنوط):اليأس كقوله تعالى: ﴿ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ أي لا تيأسوا،وانقد:أي انقطع،و(السلا):بفتح السين:المشيمة التي تتعلق بالولد وتسقط معه، وهذا مثل تقول العرب إذا بلغ أحدهم في الكرب غايته، و(انقد في البطن السلا)،و(السلا):إذا انقد في بطن المرأة هلكت.

قَدْ مَارَسَتْ منّى الخُطُوبُ مَارساً ... يُسَاوِرُ الهَوْلَ إذا الهَوْلُ عَلا .(١)

لِي الْتِواءٌ إنْ مُعَادِيَّ الْتَوى ... وَلِي اسْتِوَاءٌ إن مُوَالِيَّ اسْتَوَى .(٢)

طَعْمِي شَرْيٌ للعَدُوِّ تَارَةً ... وَالرَّاحُ والأَرْيُ لِمَنْ وُدِّي ابْتَغَى .(٣)

لَدْنٌ إذَا لُوينَتْ سَهْلٌ مَعْطفِي ... أَلْوَى إذَا خُوشِنَتْ مَرْهُوبَ الشَّذَا .(٤)

يَعْتَصِمُ الحِلْمُ بِجَنْبَي حَبْوتي ... إذَا رِيَاحُ الطَّيْشِ طَارَتْ بِالحُبَى .(٥)

لا يَطَّبِينِى طَمَعٌ مُدَنِّسٌ ... إذَا اسْتَمَالَ طَمَعُ أَو اطّبَى .(٦)

وقَدْ عَلَتْ بِي رُتَباً تَجَارِبِي ... أَشْفَيْنَ بِي مِنْهَا عَلَى سُبْلِ النُّهَى .

إِنَّ امْرُؤٌ خِيفَ لإِفْراطِ الأَذَى ... لَمْ يَخْشَ مِنِّي نَزَقٌ وَلا أَذَى .(٧)

---

(١)(مارست):أي عاركت وضاربت،(الخطوب):الأمور الشدائد، واحدها خطب،و (المارس):الشديد، و (يساور الهول):يغالبه ويطاوله ويلاصقه،و (الهول):الشدة،وجمعها أهوال،و (علا):ارتفع .

(٢)(التواء):انعواج،و (المعادي):العدو ،(الموالي):الصديق الذي يواليه أي يصادقه،و (استوى):واعتدل.

(٣)(الطعم):المذاق،(الشَّرْي):الحنظل،و (الأَرْيُ):العسل الأبيض الثاني:يقولون:لفلان طعمان:(أَرْيٌ وشَرْيٌ)والشري:الحنظل،و (الأَرْي):العسل الأبيض،(الراح):الخمر (الودُّ):الوداد، والمودة: المحبة(ابتغى):طلب، ومنه قوله ﷻ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

(٤)(اللدن):اللين الرطب،(معطفي):أي رجوعي،(لوينت):أخذت باللين وضده خوشنت:أي أخذت بالخشونة وهى الصعوبة،و (ألوي):شديد الخصومة،و (خوشنت):صورعت،و (مرهوب) :مخوف ومنه قوله تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾أي خوفاً،(الشذا): الجدة مقصور ،وقيل الشذا الأذى وكتابته بالألف .

(٥)(يعتصم):يتعلق ويتمسك،(الحبوة):شد الإزار على الركبتين والظهر ولا يعرف الاحتباء إلاَّ العرب والهند،يقال:احتبى الرجل إذا اشتمل بردائه فى وسطه،وقيل الحبوة أيضاً أن يضم الإنسان نفسه قاعداً بثوبه أو بيده،و (الحبي) جمع حبوة مثل كديه كدى،و (الطيش):خفة العقل، يقال: طاش السهم يطيش طيشاً إذا خف ولم يقصده الغرض .

(٦)(لا يطبيني):أي لا يستميلني ويدعوني،(مدنس):موسخ والدنس:الوسخ،(إذا استمال): قاد وجذب

(٧)(الإفراط):أن يبلغ الأمر فوق حده والمبالغة في الشيء وإن شئت قلت الإفراط العجلة، و (النزق): الخفة يقول إن كان الناس يفوقون من شدة الإيذاء ويخافون،فإنهم لا يخافون منى خفة وطيش ولا يخشون أن ينالهم أذى منى فإني وإن أكن مرهوب الجانب فلا أسئ لمن أقصده إساءتي ولا أبتديه بالشر من غير ضعف مني .

مِنْ غَـيْرِ مَـا وَهَـنٍ ولكِنِّي امرؤ أَصُونُ عِرْضاً لَمْ يُدنِّسْهُ الطَّخا (١)

وَصَونُ عِرْضِ المَرْءِ أَنْ يَبْذُلَ مَـا ضَـنَّ بِـه مِمَّـا حَـوَاهُ وانتصـى (٢)

والمتأمل فى أبيات الفخر السابقة يلمح أن الشاعر يُضَمِّنُ بَعْضَ أبياته ببعض أمثال العرب على نحو ما نرى فى قوله : « **بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى** » وكذلك قوله : « **انقَدَّ فِي الْبَطْنِ السَّلا** » وهذا يَدُلَّ على مدى تأثر الشاعر ببيئته وثقافته العربية، ثم يعرض بعد ذلك إلى حديثه عن الحكم والتجارب،

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١)(الوهن):الضعف، ومنه قوله ﷻ : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾أي ضعف، و(لم يدنسه):لم يوسخه، (الطخا):العيب،ويقال:الحبل،و(أصون):أحفظ، والصيانة:الحفظ والطخا ممدود فقصره .

(٢)(الصون):الحفظ أن يبذل ما ضنَّ به :أي بخل به، و(حواه):جمعه،وإن شئت قلت حازه وملكه، و(انتضى):اختار،يقال:انتصاه ينتصيه،واجتباه يجتبيه واعتماه يعتميه، وفيه لغة أخرى اعتامه يعتامه قال الشاعر :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَـةَ مَالِ الْفَاحِـشِ الْمُتَشَدِّدِ .

ثامناً : الحكم والنصائح في المقصورة

يتحدث الشاعر بعد ذلك عن الحكم والنصائح في استرسال، عارضاً أيضاً عدداً من تجاربه الشخصية التي مرَّ بها وعاناها، ومن هذه الحكم، قوله: «أنه حلو مع الأصدقاء،مرٌّ مع الأعداء»، فهو يعامل الناس كلاً بطريقته التي تلائمه، ومن ثمَّ فهو لين الجانب مع أحبابه،شديد الشكيمة ذو قسوة بالغة مع أعدائه،ويستطرد في رسم هذه الصورة بقوله أنه يُرَى مع الأحباب منقاد ومتابع أما إذا غضب منه حلت عليه أللعنة ولكنه سهل المراس فقد ينزل عن غضبه فيرى سهل الانعطاف، «وأنه يعتصم دائماً بالحلم،ولا يسيطر عليه طمع»، «ولا يخشى منه أذى»،«ويصون عرضه بذل ماله»، يقول ابن دريد في ذلك:

لِـيَ الْتِـواءٌ إِنْ مُعَـادِيَّ الْتَـوَى ... وَلِـيَ اسْتِـوَاءٌ إن مُوَالِـيَّ اسْتَـوَى

طَعْمِـيَ شَـرْيٌ لِلْعَـدُوِّ تَـارَةً ... وَالـرَّاحُ والأَرْيُ لِمَـنْ وُدِّي ابْتَغَـى

لَـدْنٌ إِذَا لُوِينَـتْ سَهْـلٌ مَعْطِفِـي ... أَلْـوَى إِذَا خُـوشِنَتْ مَرْهُـوبَ الشَّـذَا

يَعْتَصِـمُ الحِلْـمُ بِجَنْبَـي حَبْـوتي ... إِذَا رِيَـاحُ الطَّـيْشِ طَـارَتْ بِالحُبَـى

لا يَطَبَّينِـي طَمَـعٌ مُـدْنِّـسٌ ... إِذَا اسْتَمَـالَ طَمَـعٌ أَوِ اطّبَـى

وقَـدْ عَلَـتْ بِـي رُتَبـاً تَجَارِبِـي ... أَشْفَـيْنَ بِـي مِنْـها عَلَـى سُـبْلِ النُّهَـى

إِنَّ امْـرُؤٌ خِـيفَ لإِفْـراط الأَذَى ... لَـمْ يَخْـشَ مِنَّـى نَـزَقٌ وَلا أَذَى

مِـنْ غَيْـرِ مَـا وَهَـنٍ ولكِنِّـي امـرؤٌ ... أَصُـونُ عِرْضـاً لَـمْ يُدنِّسْـهُ الطَّخَـا

وَصَـونُ عِـرْض المَـرْءِ أَنْ يَبْـذُلَ مَـا ... ضَـنَّ بِـه مِمَّـا حَـوَاهُ وانتصَـى

وَالحَمْـدُ خَيْـرُ مَـا اتخَـذْتُ عُـدَّةً ... وأَنْفَـسُ الأَذْخَـارِ مِـنْ بعـدِ التُّقَـى

ثم يستطرد في سرد الحكم التي يتناولها بقوله إن أهل كل قرن وعصر يشبهون العصر الذ يعيشون فيه، لأن الزمن يوصف بما عليه أهله من فساد أو صلاح ، « كما أن الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم »، ولقد صدق الذي قال :

نُعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

يقول ابن دريد مشيراً إلى هذا المعنى:

وَالحَمْدُ خَيْرُ مَا اتخَذْتُ عُدَّةً وَأَنْفَسُ الأذْخَارِ مِنْ بعدِ التُّقَى . (١)

وَكُلُ قَرْنٍ نَاجِمٍ فِي زَمَنِ فَهُوَ شَبِيهُ زَمَنٍ فِيهِ بَدَا . (٢)

ثم يواصل استطراده في استعراض الحكم التي يشير إليها إذ يضرب للناس مثلاً بالنبات وأنواعه حيث ترى نوعاً منه بهيجاً غضاً نضيراً حتى إذا ما ذقت طعمه وجدته مراً ويظهر هذا في أنواع الورود فإن زهرتها تكون نضيرة اللون مشرقة الحسن، وشجرة الحنظل فإن ثمرتها تسر العين بخضرتها وتعجبها باستدارتها مع شدة مرارتها، وهناك أيضاً شجرة لا يروق لك منظرها ولا يعجبك، وعلى الرغم من ذلك فإن طعمها جميل وهذا يتحقق في العنب مثلاً، وخلاصة ذلك : « وهم كالبنات منه الحلو الذي لا يروق مظهره ، والمُر الذي يخدع ويروق مظهره بعض الناس »،يقول ابن دريد مشيراً إلى هذه الحكم :

وَالنَّاسُ كالنَّبْتِ فمِنْهُمْ رَائِقٌ غَضٌّ نَضِيرٌ عُودُهُ مُرُّ الجَنَي . (٣)

وَمِنْهُ مَا تَقْتَحِمُ العَيْنُ فَإِنْ ذُقتَ جَنَاهُ انْسَاغَ عَذْباً فِي اللَّها . (٤)

---

(١)(اتخذت):أي اكتسبت، و(عُدَّة):عمدة، و(أنفس):أعلا وأغلى وأرفع، و(الأذخار): جمع ذخر وهو المرفوع، يقال:ذخرت الشيء، أي رفعته وخبأته، ومنه قولهم:أنت ذخيرتي للدهر، و(التقى):مخافة الله ﷻ ،

(٢)(كل قرن):أي كل أمة، فالقرن بالفتح :الأمة، و(ناجم):مرتفع، يقال:نجم الشيء إذا طلع وارتفع، وقوله: (فهو شبيه زمن فيه بدا):أي كل أمة طلعت في زمان فتلك الأمة مشبهة للزمان الذي نجمت فيه أي نشأت فيه .

(٣)(النبت والنبات):واحد وهو ما نبت أي خرج من الأرض، و(رائق): أي معجب، و(الغض):الطري الأخضر الناعم، وكذلك النضير،ومنه قوله ﷻ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾أي ناعمة، و(الجني):ما اجتنى من الثمر أي قطف، وهو مفتوح الجيم مقصور .

(٤)(تقتحم العين):أي تتركه كرها له وتعدوه إلى غيره، و(نقت جناه):أي ما اجتنى منه، (انساغ): أي سهل بَلْعُه،و(اللها):بفتح اللام لهاة وهي اللحمة المتعلقة بأصل الحنك،(اللهى):بالضم جمع لهوة وهي المال والعطية والأصل في اللهوة بالضم ما يجعله الطاحن في فم الرحى ليطحن الواحدة لهو ولهية.

وثمة حكمة أيضا يشير إليها الشاعر وهي أن التقويم والتربية لا يصلحان إلاَّ في مرحلة الشباب على خلاف من حلت عليه مرحلة الشيخوخة فلا يصلح معها تقويم أو تربية، وهذا يعني أن « الشباب بَعْدُ قابلٌ للتقويم والتثقيف بخلاف الشيوخ الذين لا تنفع معهم التربية والتثقيف في زمن الشيخوخة ولا ينفع تقويم المعوج منهم كما لا يصلح إصلاح الزائغ »، يقول ابن دريد :

يُقَوِّمُ الشَّارِخُ مِنْ زَيْغَانِهِ فَيَسْتَوِي مَا انْعَاجَ مِنْهُ وانْحَنَى . (١)

والشَّيْخُ إِنْ قَوَّمْتَه مِنْ زَيْغِهِ لَمْ يُقِمِ التَّثْقِيفُ مِنْهُ مَا الْتَوَى . (٢)

ثم يعود الشاعر مرة أخرى لصورة الناس التي رسمها من قبل، وهي تلك الصورة التي أظهر فيها الناس في صورة النبات، حيث يقوم بتفصيل ذلك التشبيه فيقول: إن الغصون المعوجة تكون سهلة الانعطاف والرجوع عن الميل وهي ناشئة غضة طرية، أما إذا صلبت واشتدت لم يمكن عطفها إلاَّ بشدة ، يقول ابن دريد :

كَذَلِكَ الْغُصْنُ يَسِيرٌ عَطْفُهُ لَدُناً شَدِيدٌ غَمْرُهُ إِذَا عَسَا . (٣)

كما«إن الناس لا يترفعون عن الظلم ويتحامون عنه،إلاَّ إذا ظلمتهم » ولا تصبح عزيزاً لديهم مرهوب إلاَّ الجانب إلاَّ إذا أخفتهم ، يقول ابن دريد :

مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ تِحامَوْا ظُلْمَهُ وَعَزَّ عَنْهُمْ جانَبَاهُ وَاحْتَمَى . (٤)

---

(١)(الشارخ):الشاب الحدث المستقبل للشباب،وشرخ الشباب أوله،و(زيغانه):بالزاي والغين ميله، يقال زاغ الشيء إذا مال يزيغ زيغاً،قال تعالى:﴿ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ ﴾ أي مالوا و(انعاج): انعطف والتوى.

(٢)(من زيغه): أي من ميله، و(لم يُقِمْ):لم يعدل ولم يقوم، و(التثقيف):التقويم، و(ما التوى):أي ما تعوج.

(٣)(الغصن):الفرع،و(يسير):سهل، و(عطفه):رده، و(اللدن):اللين، و(الغمز)هنا: اللمس باليدين،والتقويم،و(عسا):صلب، ويروى عتا بتاء بنقطتين من فوق ومعناه أيضاً صلب.

(٤)(ظلم الناس):تعدى عليهم وأضر بهم، وأصل الظلم :وضع الشيء في غير محله، وزعم قوم أن الظلم إنما هو أخذ الإنسان ما ليس له،ومنه قولهم:من شابه أباه فما ظلم، أي من كان على مثال أبيه في حليته أو قوله أو فعله فما تعدى الحق ولا أتى بظلم، لأن الخروج عن الطبع ليس في قوته ولا استطاعته،وهو إن أتى بظلم فإنه ليس بملوم، وإنما الملوم أبوه الذي ورثه تلك الفعلات لما وضع الشبه فيما له، وهذا يرجع إلى ما قلناه إنه وضع الشيء في غير موضعه، و(تحاموا ظلمه):تباعدوا عنه وامتنعوا منه، و(عزَّ عنهم):امتنع عنهم،والعزة:القوة والشدة، ومنه قولهم :(إذا عزَّ أخوك فهن)، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾،أي غلبني في الخطاب،و(جانباه):ناحيتيه، و(احتمى):امتنع

ويبدو أن الشاعر متأثر بالشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في هذا المعنى، إذ يقول زهير في ذات المعنى :

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ وَمَنْ لاَ يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ .
وَمَنْ لاَ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ . (١)

ولا يفوت الشاعر أن يتحدث عن طبيعة بعض الناس موضحاً أنهم شديدو الظلم لأصحاب المبادئ الحميدة الذين لا يقبلون على الدنيا بنهم ويعملون الناس بالحسنى، وإنهم لفي معاملتهم للين لأَشَدُّ ظلماً من الحيات التي تسكن الحفر والأماكن التربة،إذ إن هذه الحيات لا تصادف شيئاً تمر به إلاَّ أصابته بسمها فمات، يقول ابن دريد :

وَهُمْ لِمَنْ لاَنَ لَهُمْ جَانِبُهُ أَظْلَمُ مِنْ حَيَّاتِ أَنْبَاثِ السَّفَا . (٢)

ويسترسل الشاعر في بيان بعض طبائع البشر يقول : إن الناس يتبعون ذا الغنى كأنهم عبيد لهم، حتى ولو كان صاحب المال بخيلاً شحيحاً ممسكاً لا يرجى من وراء ماله الكثير قليل منه قد يروي صاديهم، ويشفي ظاميهم، يقول الشاعر :

عَبِيدُ ذِي المَالِ وإن لم يَطْمَعُوا مِنْ غَمْرِهِ فِي جَرْعَةٍ تَشْفِي الصَّدَى (٣)

وعلى النقيض من معاملة الناس للغني حتى ولو كان بخيلاً، فهم يحترمونه، ويقومون بتبجيله، في حين أن معاملتهم للفقير المملق على النقيض إذ تجدهم لا

---

(١) زهير بن أبي سلمى : شرح ديوانه ص ٣٠ ، صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٣ هـ/ ١٩٤٤ م نشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة .

(٢)(لان):ضعف وسهل،و(الأنباث):التراب المستخرج من البئر،يقال نبث ينبث إذا حفر، واسم الفاعل نابث ونَبَّاث مبالغة، قال الشاعر:

يَهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُه إِثَارَةَ نَبَّاثِ الْهَوَجِرِ مُخْمِسِ .

أي مستخرج للتراب، و(السفا):قيل تراب القبر، وهو في غير هذا شوك الهمي وشوك السنبل .

(٣)(الغمر):الماء الكثير الذي يغطي من دخله، وهو ههنا العطاء، يقال غمر أي واسع الخلق كثير العطاء، و(جرعة):الجرعة هي القليل من الماء مثل الحسوة،و(تشفي): تبري،و (الصدا): العطش وهو مصدر صدى يصدي صدىً .

يحترمونه ، ويفرون من مساعدته ومجالسته، ولو تمسك بعرى الجود، وقاسمهم ما لديه من كل موجود، يقول ابن دريد مشيراً إلى ذلك :

وَهُمْ لِمَنْ أَمْلَقَ أَعْدَاءٌ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِيمَا أَفَادَ وَحَوَى (١)

وثمة ملحوظة مهمة وهي أن الشاعر يقوم بالمزج بين الحكمة والفخر في مواضع متعددة من المقصورة ، فعلى سبيل المثال نراه يتحدث عن نفسه فيقول إنه رجل مجرب ذاق حلو الدهر ومره، وابتلي بيسره وعسره، وصادف خيره وشره، ومن ثم فهو أعلم به، وبأيامه، وصروفه، وأحداثه؛ لأنه ألبسه منه أثواباً، وكساه من أحداثه أردية، وما يستوي المجرب وغير الجرب، كما لا يستوي العالم وغير العالم وهذه النبرة يحتويها الفخر بخبرته بالدهر وصروفه، يقول ابن دريد :

عَاجَمتُ أَيّامي وَمَا الغِرُّ كَمَنْ تَأَزَّرَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ وارْتَدَى . (٢)

كما يشير أن الذي يحظى بالفوز في دنياه إنما هو اللبيب الذي يمتلك من الحظ ما جعله يفوز، لأن الحظ هو المعول عليه في كل ما يصيب من خير أو شر، حتى ولو كان جاهلاً خاملاً ارتفع ذكره ونبه أمره وعلا صيته ولله درُّ من قال :

لاَ تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لَكَ رُتْبَةً قَلَمُ الْبَلِيغِ بِغَيْرِ جِدٍّ مِغْزَلُ
سَكَنَ السَّمَاكَين كَانَ كِلاَهُمَا هَذَا لَهُ رُمْحٌ وَهَذَا أَعْزَلُ

---

(١)(أملق):افتقر والإملاق الفقر كقول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾،أي فقر، ومنه رجل مملق أي فقير وكذلك مخفق وصعلوك ومقتر ومصرم، والمصرم الذي ذهبت إبله، رجل سبروت وامرأة سبروتة وسبريته وقوم سباريت وكذلك قرطوب وقرطاب أي فقراء و(أفاد): اكتسب،(حوى):ملك وجمع .

(٢)(عاجمت أيامي):أي ما ضغتها يقال مضغنتي ومضغتها،وعركتني وعركتها، و(الغِرّ):الذي لم يجرب الأمور، و(تأزر):من الإزار كأنه يريد أنه جرب الدهر حلوه ومره .

يشير ابن دريد إلى هذا المعنى بقوله :

لا يَـرْفَـعُ اللّـبُّ بِـلاَ جَـد وَلاَ يَحُطُّكَ الجَهْلُ إذا الجَدُّ عَلاَ . (١)

ويواصل الشاعر استعراض حكمه إذ يقرر حكمة من أهم ما أورد من الحكم وهي أن الدهر خير واعظ لمن أراد العظة، لأنه أقوى عظة في النفس من مواعظ الواعظين وأكثر تأثيراً، ولا قيمة لعين المرء إذا لم يستطع من خلالها أن يعتبر ويرى الحادثات والفاجعات، كما لا قيمة لقلبه أو سمعه، وأن يقوم بتوظيفها في التقدم للخير ،أما إذا أهمل جوارحه وحواسه فإنه سيزداد ضلالا، والعاقل الذي يستطيع قياس الغائب بالحاضر ، والنائي بالقريب،والحاضر بالماضي، فإذا صنع ذلك انكشف لقلبه وعينه المغيبات، وشهد ما لم يقع قبل وقوعه، فتلافى الشر ونجا منه ولم يقع فريسة للبلاء والمحن، هذا بالإضافة إلى أن الذي يستسلم للطمع والحرص في دنياه، عاش مهاناً ذليلا، وتجرع كأس الهوان، يقول ابن دريد:

مَنْ لَمْ يَعِظْهُ الدَّهْرُ لَمْ يَنْفَعْهُ مَا رَاحَ بِهِ الوَاعِظُ يَوْمَاً أَوْ غَدَا . (٢)

مَنْ لَمْ تُفِدْهُ عِبَـراً أَيَّامُـهُ كَانَ العَمَى أَوْلَى به مِنَ الهُدَى . (٣)

مَنْ قَاسَ مَا لَم يَرَهُ بِمَا يَرَى أَرَاهُ مَا يَدْنُو إِلَيْهِ مَا نَأَى . (٤)

مَنْ مَلَّكَ الحِرْصَ القِيَادَ لَمْ يَزَلْ يَكْرعُ فِي مَاءٍ مِنَ الذُّلِّ صَرَى . (٥)

---

(١)(لا يرفع اللب):هو من الرفعة أي لا تعلو منزلته،ويروى لا ينفع من النفع الذي هو ضد الضرر، و(اللب):العقل وجمعه ألباب،و(الجد):بالفتح الحظ، و(لا يحطك):أي لاينزلك ولا يسفلك، ويروى لا يحبطك الجهل أي لا يبطل حظك ولا يسقط رفعتك،ومن قولهﷻ﴿ وَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾أي أبطلها، و(إذا الجد علا):أي إذا السعد ارتفع .

(٢)(من لم يعظه الدهر):أي من لم يبصره،و(راح):أتى بالعشي، و(غدا): أتى بالغدو أي في الظهيرة .

(٣)(من لم تفده):أي تكسبه مأخوذ من أفاد يفيد إذا أكسب، و(العبر):جمع عبرة وهي التذكرة، و(العمى): هنا عمى القلب وهي انطماس ذكائه، و(الهدى): القصد إلى الصواب .

(٤)(قاس): من مثل، والقياس في اللغة التمثيل، وحده عند الأصوليين:حمل أحد المعلومين على الآخر بمعنى يجمع بينهما، وقيل:رد فرع إلى أصل في بعض الأحكام بمعنى يجمع بينهما، وقيل:رد الشيء في الحوادث إلى نظيره أصله الذي يقاس عليه، و(يدنو):يقرب، و(ما نأى): ما بعد .

(٥)(الحرص):الاجتهاد في طلب كل مرغوب فيه مع كثرة الموانع منه،(القياد):الطاعة من قولك:قدت الدابة فانقادت لي أي أطاعتني (يَكْرَعُ):يخوض أو يشرب،(الصَّرَى): الماء الدائم الذي قد طال مكثه فتغير فيه،و(الصرى):من اللبن أيضاً ما طال مكثه في الضرع ولم يجلب و(الصرى) جمع والواحدة:صراة،ويقال شاة مصراه إذا حلبت كل ثلاثة أيام حلبة

ويستطرد الشاعر في سرد الحكم، ويقرر إن المرء إذا قنع بنصيبه وحظه ورضي به، وزهد فيما في أيدي الناس، ولم ينظر إلى ما في أيدي غيره، فإنه لا شك سيحظى بمكانة سلمية، ومركز رفيع، كما أن الذي لا يطمع في الدنيا عن رضىً وترفع وعز، أتاه نصيبه من حطام الدنيا وهي راغمة، وهو في علو وعظمة، كما إن السعادة في القناعة والرضا، وأن من يلزم نفسه الرضا بما يصيبه مع كراهته وغضاضته أصبح غنياً يرافقه الغنى حيث حلَّ، ثم يكمل تلك المعاني بقوله إن الإنسان إذا سمح لأمانيه أن تمتد وتتجاوز قدر حاجته، وأجهد نفسه جهد البلاء، وجرى في ميدان الشقاء، لم ينل سوى ما كتب له على الرغم من كل هذا الجهد، كما أن الإعجاب بالنفس والعمل، والتعالي على الناس، أدى إلى الكراهية منهم وازدرائهم له، ولكل إنسان حدٌّ ينتهي إليه ولا يتجاوزه، فإذا التمس مكانة أعلى من قدرته عجز عن إدراكها، ومن ثم ينبغي على المرء أن يتطلع على قدر طاقته، وإلى مستواه، حتى لا يصاب بإحباط يشير الشاعر إلى هذه الحكم بقوله :

مَنْ عَارَضَ الأطماع باليأس رَنَتْ ... إليه عَيْنُ العزِّ مِنْ حَيْثُ رَنَا . (١)
مَنْ عَطَّفَ النَّفْسَ على مَكْرُوهِهَا ... كان الغنى قرينَهُ حَيْثُ انْتَوَى . (٢)
مَنْ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ انْتِهَاءِ قَدْرِهِ ... تَقَاصَرَتْ عَنْهُ فَسِحَاتُ الخُطَا . (٣)
مَنْ ضَيَّعَ الحَزْمَ جَنَى لِنَفْسِهِ ... نَدَامَةً أَلْذَعُ مِنْ سَفْعِ الذَّكَا . (٤)
مَنْ نَاطَ بالعُجْبِ عُرى أَخْلاقِهِ ... نِيطَتْ عُرَى المقت إلى تلك العُرَى . (٥)

---

(١)(الأطماع):جمع طمع،و(اليأس):انقطاع الرجاء،(رنت):نظرت والمراد بعين العز نفسه.
(٢)(عطف):أمال وردو(كان الغنى قرينه):أي صاحبه،و(حيث انتوى):حيث بعد،وهو من النوى أي البعد .
(٣)(انتهاء قدره):غاية قدره،و(تقاصرت):قصرت،و(فسيحات):واسعة فسيحة أي واسعة (الخُطَا) جمع خطوة .
(٤)(ضيّع):ترك،(المضيع):التارك،(الحزم):الاحتراس في الأفعال والاستعداد للأمور قبل وقوعها، و (جنى لنفسه ندامة):أي قادها إليها كما يجنى الثمرة أي يجمعها ويقطعها،ويجوز أن يكون جنى بمعنى جرَّ على نفسه ندامة فتكون اللام في نفسه بمعنى على،(ندامة):حسرة وتأسفاً (ألذع):أشد حرقة،(السفع):الإحراق، (الذّكا):التهاب النار مقصور يكتب بالألف لأنه من ذوات الواو،يقال ذكت النار تذكو ذكواً .
(٥)(ناط):علق وألصق،يقال:ناط فلان الشئ بنوطه فهو نائط،والشئ منوط أي معلق، والنياط:عرق غليظ علق به القلب وجمعه أنوطه فترد الياء إلى الواو لأنها في النياطة مبدلة من واو ،(عرى):جمع عروة وهو ما يتمسك به أي يتعلق به،(المقت): أشد البغض يقال:فلان مقيت ممقوت.

مَنْ طَالَ فَوْقَ مُنْتَهَى بَسْطَته   أَعْجَزَهُ نَيْلُ الدُّنا بَلْهَ القُصَا . (١)

مَنْ رَامَ مَا يَعُجَزُ عَنْه طَوْقُهُ   مِ العِبْءِ يَوْماً آضَ مَجْزُولَ المَطا . (٢)

ويبدو تأثر الشاعر بالمعاني الدينية في حكمه التي ينص عليها، ولعل ذلك يتضح من خلال الحكمة التي يعرضها والتي تتضمن أن المرء إذا حاول إدراك ما تنوء به قوته، ولا تتحمله طاقته، فإن حاله بلا شك ستؤول إلى العجز عن بلوغ غايته، والتقصير عن إدراك الطلب، فيلحقه الكلال والنصب، هذا المعنى هو نفسه ما تضمنه قول الرسول ﷺ: « **إن المُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ، وَلاَ ظَهْراً أَبْقَى** »، يقول الشاعر :

والنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدٍ   وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى . (٣)

ولِلْفَتَى مِنْ مَالِهِ مَا قَدَّمَتْ   يَدَاهُ قَبْلَ مَوْتِهِ لاَ مَا اقْتَنَى . (٤)

كما يبدو تأثر الشاعر بالمعاني الدينية على نحو ما نرى عندما أراد أن يقول في الحض على بذل المال والجود والنهي عن اكتنازه والتصغير من شأنه، لأن الإنسان لن

---

(١)(البسطة):الفضلة يفضل بها الإنسان على غيره ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾، (أعجزه نيل الدنى):أي أضعفه وقصر به وقيل فاته، و(النيل):الإدراك، (الدنى):جمع الدنيا وهو الشيء القريب، (القصا):جمع القصوى وهو الشئ البعيد، ومنه قوله ﷻ: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾، و(بَلْه): بمعنى غير ،وقيل بمعنى دَعْ .

(٢)(رام):طلب، و(مايعجز عنه):أي ما يقصر عنه، و(طوقه):طاقته، يقال طاقة وطوق بمعنى القوة، قال يزيد بن معاوية بن أبي سفيان :

إنْ تُعَذِّبْ يَكُنْ عَذَابُكَ يَارَبُّ   غَرَاماً لاَ طَوْقَ لِي بِالعَذَابِ .

أَوْتُجَاوِزْ فَأَنْتَ رَبٌّ عَفُوٌّ   عَنْ مُسِيءٍ ذُنُوبُه كَالتُّرَابِ .

و(الطوق):أيضاً في غير هذا حلي يجعل في العنق، وكل شيء استدار فهو طوق، وقوله (مِ العبء):أصله من العبء، فحذفت النون والألف، ووصل الكلام، و(العبء):الثقل، وجمعه أعباء، و(آض):رجع، و(المجزول):المقطوع، والجزلة من اللحم القطعة منه، (المطا):الظهر .

(٣)(إن امرؤعنى):أي قصد، وقد يكون من العناء وهي المشقة، ويقال أيضاً عناني الأمر إذا لزمني

(٤)(اقتنى):اكتسب، وقيل ادخر ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾، أي أعطى ما يدخر.

ينفعه ماله الذي جمعه، ولا يغني عنه شيئاً في الحساب، وإنما الذي ينفعه ما تصدق به إلى الله ﷻ،وفي هذا المعنى ورد الحديث القدسي: «يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وما سوى ذلك فوزره عليك»، ومن ثمَّ كان فإن الإنسان – حتماً – سيفنى، ولن يبقى له إلاَّ عمله الصالح، وهكذا الإنسان وحاله يفنى ويعود تراباً، ولكن ذكره خالد في أفواه الناس، فإن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، كل هذه الأمور قد عرفها عن خبرة بالحياة وبالدهر وأحداثه التي مرَّت به سواء أكانت أفراحاً أم أتراحاً، وقد عرك الدنيا وعركته، وتجرع في حياته الحلاوة حيناً والمرارة حيناً آخر، يقول الشاعر :

وإِنَّمَا المَرْءُ حَدِيثُ بَعْدَه فَكُنْ حديثاً حسناً لِمَنْ وَعَى .(١)

والحقيقة إن هذه الحكم التي أطال في عرضها واستقصائها حتى استغرقت قرابة خمسين بيتاً ليس فيها أي جديد، ومن السهل إعادة كل واحدة منها إلى صاحبها الذي سبق له أن قالها، ثم يواصل الحديث عن حكمته التي استخلصها من طول بحثه في الزمان حتى عرف أوله من آخره، ونعيمه، وبؤسه، وصفاته، وتقلبه، وأدرك أن الناس أمام الموت إنما هم كالحشيش الأخضر أمام الحيوانات السائمة .

(١)(لمن وعى):أي حفظ، يقال وعى يعي وعياً قال الله ﷻ: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾، ويقال وعى جمع وبهذا فسرت الآية .

تاسعاً : النزعة التأملية في المقصورة

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الشاعر في المقصورة يرى أنه على الرغم من كل المتاعب، فإن الحياة جميلة محبوبة، ليس فيها من عيب سوى ما يهددها فيها من فناء وشيب يستلب حلى الشباب، ومن الواضح أن هذه النظرات الحزينة هي أصدق ما في قصيدته من شعر، فَهُوَ يقرر أنه قد مارس الأمور، وابتلى بالأحداث وعركته التجارب فوجدته صلباً كأنه الجمل القويّ القادر على تخطى العقبات والسيطرة على مقاليد الأمور، كما أن الموت يرعى الناس، ويقوم بافتراسهم كما تفترس الدواب الحشيش الرطب، فكما أن الخلا[1] لا يبقى على الرعي والأكل، كذلك الناس لا يدومون ما دام الموت يتعقبهم.

ثم يبدى الشاعر إعجابه برجل يؤمن بأن الموت إذا حلَّ بامْرئ لا تنفعه الرُّقَى والتعاويذ، ومن يعتقد في هذه الرقى أنها تؤثر بشيء أو بآخر فإنما مثله كمثل الذي يخبط فى ظلمات الليل خبط عشواء، وإننا بكل أسف يعزب عنا اليقين مع إيماننا بالله ﷻ، ونحيد حيناً عن الجادة ونغتر بزهرة الدنيا، وحالنا في ذلك حال السارب من الإبل أو الماشية تركت هملاً ووجدت مرعى ترعاه ، ويضيف الشاعر إنه لسيره على غير هدى، عَدِمَ الأمان والقرار فهو مطمئن متماد في لهوه وغيّه لأقل الأصوات وأخفى الحركات، كما يشبه الناس بقطيع من الماشية ترعى مطمئنة ما لم يروعها الليث ويخفيها فتنزوي وتكف عن الرعي وتدخل إلى مرابطها، يقول ابن دريد :

---

(١)(الخلا):هو الحشيش الرطب، وهو أيضاً من الخلوة .

إنِّي حَلَبْتُ الدَّهْرَ شَطْرَيْهِ فقَدْ أَمَرَّ لِي حِيناً وَأَحْيَاناً حَلاَ

وَفُرَّ عَنْ تَجْرِبَةٍ نابي فَقُلْ في بَازِلٍ رَاضَ الخُطُوبَ وامْتَطَى .(١)
والنّاسُ للمَوْتِ خَلاً يَلُسُّهُمْ وَقَلَّ ما يَبْقَى على اللَّسِّ الخَلا .(٢)
عَجِبْتُ مِنْ مُسْتَيْقِنٍ أَنَّ الرَّدَى إذَا أَتَاهُ لاَ يُداوى بالرُّقَى .(٣)
وَهْوَ مِنَ الغَفْلَةِ في أهويهِ كَخَابِطٍ بَيْنَ ظَلامٍ وعَشَى .(٤)
نَحْنُ وَلاَ كُفْرَانَ للهِ كَمَا قَدْ قِيلَ للسَّارِبِ أَخْلَى فَارْتَعَى .(٥)

(١)(فُرَّ عن تجربة نابي):أي كشفت عن أمري،وهذا مثل مأخوذ من قولهم: فرعن الدابة إذا فتح فاها ليعرف سنها وينظر صغرها من كبرها، و(الناب):الضرس الذي يلي الرباعية،و(راض الخطوب): أذلها،يقال رضت الفرس إذا ذللته،و(البازل):من الإبل الذي أتت عليها تسعة أعوام،و(الخطوب): الأمور النوازل واحدها خطب، و(امتطى):الدابة، ركبها وجعلها مطية .

(٢)(الخلا):الحشيش الرطب، و(يَلُسُّهُمْ):يأكلهم، و(اللَّسُّ):أن تاخذ الماشية الخلا الرطب بمقدم فيها، والبيت مثل مضروب للموت والناس .

(٣)(مستيقن):عالم، و(الردى):الهلاك، ومنه قولهﷻ: ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾، و(الرقى):جمع رقية وهي تلاوة أدعية من القرآن للشفاء من العلة، وهي جائزة شرعاً.

(٤)(الأهوية):الغامض من الأرض، وهي الحفرة التي يضيق أعلاها ويتسع أسفلها، و(الخابط): الذي يمشي ليلاً بغير مصباح، فربما وقع في بئر أو سقط على شيء وهو لا يدري أين يجعل رجليه فيطأ كل شيء وهو لا يراه، و(العشا):ضعف في البصر، يقال رجل أعشى وامرأة عشواء .

(٥)(ولا كفران لله):أي ولا جحد لله والكفران والكفر واحد، وأصل الكفر التغطية، و(الستر):تكفر فلان النعمة إذا عرفها وكتمها، يقال لليل: كافر، لأنه يستر بظلمته، وسمي الزارع كافراً، لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كفره أي غطاه، ومنه قوله ﷻ : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾، والكفار هنا الزراع، ويقال جاء فلان في ألف كافر يريد في ألف فارس ممن غطى عليه السلاح، وسمي طلع النخل كافوراً لاستتاره في أغطيته، ومنه قوله ﷺ :(**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**)،أي لا يتكفر= = بعضكم لبعض في

وثمة أمر مهم تجدر الإشارة إليه وهو أنه يوظف الأمثال في التعبير عن نظرته التأملية ويتضح ذلك من خلال قوله:

والنّاسُ لِلمَـوْتِ خَـلاً يَلُسُّهُـمْ وَقَلَّ ما يَبْقَى عَلَى اللَّسِّ الخَـلا.

فهذا مثل يضرب للموت والناس، بمعنى أن الموت يرعى الناس ويفترسهم كما تأكل الدواب الحشيش الرطب وترعاه، وإنما حال الناس مع الموت الذي لا يبقيهم كحال الدواب مع الخلا .

كما يبدو الشاعر متأثراً بالبيئة وما فيها من مظاهر طبيعية، لاسيما البيئة الصحراوية على نحو ما رأينا من صورة قطيع الإبل والماشية الذي يقوم برعي العشب والحشيش الرطب، وهذه الصورة مستوحاة من البيئة التي يعيش فيها الشاعر.

ولم يكن الشاعر أول من صور الموت بهذه الصورة، فقد سبقه إليها الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد الذي يقول في قصيدة له يبين لنا فيها رأيه في الموت :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَا الطُّولَ الْمُـرَخَّى بَـالْيَدِ . (١)

فالموت إذن حقيقة واضحة لا شك فيها، ولا سبيل إلى إنكارها، والشاعر هنا كما أشرت تصويراً رائعاً عندما صور المرء في هذه الدنيا بصورة دابة أرخي

السلاح، و(السارب):الظاهر بماله من الماشية وكل متصرف في حوائجه فهو سارب، ومنه قوله ﷻ : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ وقال الشاعر :

وَكُلُّ أُنَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ

سارب:أي ذاهب، و (أخلى):أي دخل في الخلاِ وهو الحشيش الرطب، و (ارتعى) : طلب المرعى .

(١) طرفة بن العبد : شرح ديوانه ص ١٠٧ ، قدم له وشرحه الدكتور سعدي الضناوي ، طبعة دار الكتاب العربي ، سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

لها الحبل لترعى، فإذا أرادها صاحبها شَدَّ إليه الحبل فتركت مرعاها الخصيب، وانقادت صاغرة لا تملك رفضاً .

ثم يشير الشاعر أنه بسبب سيره في هذه الدنيا على غير هدى عدم الأمان والاستقرار، فهو منغمس في متاع الدنيا الزائل، مطمئن متماد في لهوه وغيه، يرتاع لأقل الأصوات، وأخفى الحركات، لاسيما عندما تعروه ملمة، أما إذا انقضت وزال الكرب، عاد من جديد ليتمادى في لهوه،ونسي ما كان فيه من البلاء والشدة،يشير ابن دريد إلى هذه المعاني بقوله :

إذا أَحَسَّ نبأةً رِيعَ وَإِنْ تَطَامَنَتْ عَنْه تَمَادَى وَلَهَا . (١)

كَثُلَّةٍ رِيعَتْ لِلَيْثٍ فَانْزَوَتْ حَتَّى إذا غاب اطمأنت أن مَضَى . (٢)

نُهَالُ لِلأَمْرِ الذي يَرُوعُنَا وَنَرْتَعِي فِي غَفْلَةٍ إِذَا انْقَضَى . (٣)

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١)(أحس):علم، و(النبأة):الصوت الخفي، و(ريع):فزع، و(تطامنت):اطمأنت بمعنى هدأت وسكنت، و(تمادى): دام واستمر، و(لَهَا):غفل .

(٢) (الثلة) : بالفتح الجماعة من الغنم ، والثلة بالضم الجماعة من الناس قال الله ﷻ : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾، و(ريعت): فزعت، و (انزوت) : انقبضت .

(٣)(نهال):نفزع والهول:الفزع، والروع أيضاً الفزع،و(يروعنا):يفزعنا، و(ترتعي):ترعى، ومنه قوله ﷻ : ﴿ نَرْتَعْ ونَلْعَبْ ﴾ .

عاشراً : عَوْدُ إلي الوصف والافتخار بجلده وتجاربه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

يسترسل الشاعر فيما هو بصدده من وصف لأصحابه الذين اصطحبهم في أسفاره البعيدة، وحينما اعتورهم الكسل والخمول، أصابهم النحس، وأعلن أن سوء الحظ كان حليفاً لهم، وثمة صنف من الناس شرفاء المشاعر والأحاسيس، أنفسهم أبيّة إذا وقعت منهم خطيئة، أوبدرت منهم إساءة، فهؤلاء لا تجدي معهم إهانة، وإنما ينصاعوا بقليل من اللوم الذي يتناسب وطبيعتهم النفسية، وهم يتمتعون بنفوس تكفيهم الملامة، بخلاف صِنْفٌ آخر لا تجدي معهم الإهانات وإنما يستقيمون بالضرب والسوط ، يقول ابن دريد ذاكراً ذلك :

إنَّ الشَّقَاءَ بِالشَّقِيِّ مُولَعُ لا يَمْلِكُ الرَّدَّ لَهُ إذَا أتَى (١)

واللَّوْمُ لِلْحُرِّ مُقِيمُ رَادِعُ والعَبْدُ لا يَرْدَعُهُ إلاَّ العَصَا (٢)

وملاك الأمر كله أن العقول تمرض كالأجسام، فيذهب صلاحها ويعدم نفعها إذا غلبتها الشهوة، وأما العقول السليمة التي لا تغلبها الشهوة فقد كتبت النجاة لأصحابها، كما أن الهوى يفسد العقل ويضره؛ لأن الهوى والعقل ضدان، فإذا تغلب سلطان الهوى على سلطان العقل هلك صاحبه،

---

(١)(الشقاء): والشقوة واحد، ومنه قوله ﷻ : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾، ويقرأ شقاوتنا،و(المولع):المغرم بالشيء الملازم له لا يكاد يفارقه،و(لا يملك الرد له):أي لا يملك الدفع والصرف .

(٢)(اللوم):بالفتح من الملامة، وهو الذم والشتم، و(اللؤم):بالضم الشح ومهانة النفس ودناءة الآباء، و(الحر):الخالص من كل شيء، و(مقيم):أي مصلح ما كان فيه، و(رادع):كاف، يقال ردعته فارتدع أي كففته فانْكَفَّ ، والرادع وجع في الجسد، والرادع أيضاً لطخ الطيب وأثره في الجسد، والرادع الغضب .

أما إذا تغلب سلطان العقل على سلطان الهوى نجا صاحبه من الهلاك، ومقتضى ذلك أننا نخلص الود لمن ينطوي على خلق كريم مع ما قد يكون له من مثالب أخرى، ويشبه هذه الحالة بالسيف المحمود، لا يذهب بحمده أن قد نبا يوماً، ولكل جواد كبوة، وأي الرجال المهذب، وحاله أيضاً معهم كحالة راكب الفرس الكريم ينبغي أن يذمه إذا عثر به أو كبا ما دام لا يوصله إلى غايته، ويدعو إزاء كل ذلك إلى اعتماد الصبر الجميل، وعلى المكاره، والشكر الجزيل، والرضا بالقليل، فإن ذلك أجمل بالعاقل، فالدهر قلب لا أمان له، يقول ابن دريد:

وَآفَةُ العَقْلِ الهَوَى فَمَنْ عَـلا ... عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَـا . (١)
كَمْ مِنْ أَخٍ مَسْخُوطَةٍ أَخْلاقُـهُ ... أَصْفَيْتُهُ الوُدَّ لِخُلْقٍ مُرْتَضَى . (٢)
إِذَا بَلَـوْتَ السَّـيْفَ مَحْصُوداً ... تُذْمِمْهُ يَوْماً أَنْ تَرَاهُ قَدْ نبـا . (٣)
والطَّرْفُ يَجْتَازُ المَدَى وَرُبَّمَا ... عَـنَّ لِمَعْـداهُ عِثَـارٌ فَكَبَـا . (٤)
مَنْ لَكَ بِالمُهَذَّبِ النَّدبِ الَّذِي ... لاَ يَجِدُ العَيْبُ إليه مُخْتَطَـى . (٥)

---

(١)(آفة العقل):مضرته ومفسدته،و(الهوى):الشهوة والإرادة، و(من علا):أي من ارتفع عقله على هواه أي على شهوته وإرادته، و(فقد نجا):أي فقد سلم .

(٢)(مسخوطة):من السخط وهو ضد الرضى فمعنى مسخوطة غير مرضية،و(أخلاقه):طبائعه، و(أصفيته الود):أي أخلصت له الود،و(لخُلْقٍ مرتضى):أي لخلة واحدة مرضية منه،و(المرتضى):المستحسن.

(٣)(بلوت):اختبرت ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ،و(تذممه):تعيبه، و(نبا):ارتفع عن المضروب ولم يقطع فيه شيئاً .

(٤)(الطرفَ):الكريم من الخيل،و(يجتاز):أي يجوز ،(المدى):الغاية وعن عرض،و (لمعداه): لعدوه، و(عَدْوِهِ):جريه، و(عِثَارٌ):مصدر عثر يعثر عِثَاراً إذا كبا،وكبا:سقط لوجهه .

(٥)(المهذب):العاقل الظريف، وقيل المهذب المخلص، و(الندب):الرجل الخفيف في الحاجة، وقيل الندب الذي ينتدب للمكارم، وقيل الندب المندوب لكل حاجة حسن التصرف فيها، وقيل الندب الذي عركه الهر فحسن أخلاقه، و(المختطى): الممشى وهو من خطا يخطو إذا مشى .

(١)(التصفح):النظر في خلال الشيء،و(لم تلف):لم تجد،و(حاز):حوى، و(الكمال):التمام يقال أكملت

إِذَا تَصَفَّحْتَ أُمــورَ النَّــاسِ لَمْ ... تُلْفِ امْرءاً حَــازَ الكَمالَ فَاكْتَفَى . [١]

عَـوِّلِ عَلَى الصَّبْرِ الجَمِيلِ إِنَّـهُ ... أَمْنَـعُ مَـا لاذَ بِـهِ أُولُـوا الحِجَـا . [٢]

وَعَطِّفِ النَّفْسَ عَلَى سُبْلِ الأسا ... إِذا استَفَـزَّ القَلْبَ تَبْرِيحُ الجوَى . [٣]

والدَّهـرِ يَكْبُـو بالفَتَـى وَتَــارَةً ... ينـهضـه مِنْ عَثْـرةٍ إِذا كَبـا . [٤]

يواصل الشاعر حديثه عن وصف حال الدنيا، وبيان طبيعتها فيقول إن مصائبها وشرورها لسمة غالبة عليها، ومصائبها أكثر من أفراحها، وينبغي على المرء ألاَّ يأخذه العجب من ذلك، كما لايزداد تعجباً إن رأي هلك، فهذا أمر طبعي، بل إن العجب كل العجب إذا رأي إنساناً نجا وسلم، وهل يعقل أن ينجو إنسان وهو بين فكي الأسد، ذلك ما لاسبيل إليه،إن هذا العالم قد تبددت كل المحاسن فيه، وانمحت نجوم الجد بعد أن كانت مشرقة، وتبدلت الأنوار بعتمة قاسية، ولم نعد نرى إلاَّ الأشرار، اللهم إلاَّ بقية قليلة ظلت تحمل بين طياتها الخير لكل المخلوقات، هؤلاء عندما يأتي ذكرهم، تسمع ذكراً يعطر كل الأرجاء، وإن شذا ذكرهم وهم على هذه الكيفية مثل الروض الذي ينشر رائحته

الشيء، إذا أتممته، و(اكتفى):أي اجتزأ به تقول كفاني الشيء يكفيني أي أجزأني .

(٢)(عوّل على الصبر):أي ارجع إليه واعتمد عليه،و(امنع):أي أحمى وأقوى، و(لاذ): لجأ وركن واستتر، و(الحِجَا):العقل، وأولوا الحجا:أولوا العقل .

(٣)(عَطّف النفس):ردّها،و(الأسى):التصبر،و(إذا استفز):استخف، و(التبريح):الشدة، وجمعها تباريح،و(الجوى)مقصور مفتوح الجيم، فساد الجوف، يُكْتَبُ بالياء لأنه يقال جوى يجوي جوىً، ويروى: تبريح الأسا، بفتح الهمزة الحزن.

(٤)(يكبو):يعثر، يقال كبا يكبو بمعنى عثر يعثر، و(تارة):أي مرة وحيناً، و(ينهضه):يقيمه، و(إذا كبا):سقط وعثر والمصدر كبوة، واسم الفاعل كاب .

العبقة الجميلة، كما إن مجالسهم كريمة بعيدة عن البذاءة والفحش من القول، فلا تنبو عنها الأسماع، بل تصان عن كل المقابح والعيوب.

ويسترسل الشاعر حديثه ذاكراً حقيقة مهمة وهي أن معظم الناس إن لم يكن كلهم يتمنون ويطمعون في هذه الحياة، ولو أن الموت قبل رشوة لتحقيق ذلك، لبذلوا له الرشاوى الكثيرة، ولكن هيهات أن يحدث ذلك، لأن الموت لا يقبل الرشوة، ومن ثَمَّ فإن شبح الموت يكدر صفوها عند هؤلاء، وما أروع أن يتنعم الإنسان بالشباب طيلة حياته، وأن يبتعد عن شبح المشيب الذي إذا حلَّ سُلِبَ من حُلَى الشباب الجميلة بما فيها من قوة ونضارة وقدرة على الاستمتاع باللذائذ، يقول الشاعر مشيراً إلى هذه المعاني بقوله :

لا تَعْجَبَن مِنْ هَالِكٍ كَيْفَ هَوَى … بَلْ فَاعْجَبَنْ مِنْ سَالِم كَيْفَ نَجَا . (١)
إنْ نُجُومُ الْمَجْدِ أَمْسَتْ أُفَّلاً … وَظِلُّهُ الْقَالِصُ أَضْحَى قَدْ أَزَى . (٢)
إلاَّ بَقَايا مِنْ أُناسٍ بِهِمْ … إلى سَبِيلِ الْمُكْرُمَاتِ يُقْتَدى . (٣)
إذا الأَحاديثُ اقْتَضَتْ أنباءَهُمْ … كانَتْ كَنَشْرِ الرَوْضِ غاداه السَّدَى . (٤)
لا يَسْمَعُ السَّامعُ في مَجْلِسِهِمْ … هُجْراً إذَا جَالسَهُمْ وَلا خَنَا . (١)
ما أَنْعَمَ العِيشَةَ لَوْ أَنْ الفَتَى … يَقْبَلُ مِنْهُ الْمَوْتُ أَسْنَاء الرَّشَا . (٢)

---

(١)(هوى):سقط يقال منه هوى يهوي هوياً، و(نجا):خلص.

(٢)(الآفل):الغيب،والواحد آفل،يقال:أفل أفولاً إذا غاب كقوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ ، (القالص):المرتفع،وفرس قالص طويل القوائم،(أزى):قصر وتقبض .

(٣)(يقتدى):يتبع فعلهم .

(٤)(اقتضت):أي طلبت الأحاديث أخبارهم،ويروى انتضت أي ظهرت وهو من نضا الشئ ينضو إذا ظهر(النشر):الرائحة الطيبة،(الروض):الموضع الذى يكون فيه ضروب من النبات فيكون فيه أنواع النَّور،(غاداه):باكره،وهو من الغدو،يقال غاداه يغاديه مغاداة إذا صبحه بالغدو، و(الندى) فى هذا الموضع هو المطر،وقيل السدى:ما نزل في أول الليل والندى في آخره .

(١) (الهُجْر):القبيح من القول، و(الخنا): في القول أو الفعل ويقال:الخنا فيهما.

أَوْ لَوْ تَحَلَّى بالشَّبابِ عُمْرَهُ   لَمْ يَسْتَلِبْهُ الشَّيْبُ هاتيك الحُلَى . (٣)
هيهات مَهْمَا يَسْتَعَرْ مُسْتَرجَعُ   وَفِي خُطُوبِ الدَّهْرِ للنَّاسِ أُسَى . (٤)

ومع اقتراب الشاعر من نهاية المقصورة تشغله فكرة النهاية لكل حيٍّ ، وهي فكرة الموت ويكون منتهى أمله العمر واستمرار الشباب، غير أن الحقيقة التي لا ينبغي أن يخدع فيها أحد، لا تلبث أن تفرض عليه، ويتقبلها راضياً متعزياً بخطوب الدهر وأحداثه .

ثم يشارك الشاعر بعض الفتيان رحلة في الصحراء، فيقوم بوصف حالهم، كما يتطرق في وصفه إلى تفاصيل دقيقة، فهو يقول: إن هؤلاء الفتية قد غلبهم النوم أثناء رحلتهم، والليل خيم على الدنيا، وألقى على هؤلاء الفتية أرديته، وغطى بظلامه هذا الوجود، وعلى الرغم من غلبة النوم عليهم إلاَّ أن الإبل لم تنم، بل ظلت مواصلة سيرها عبر هذه الفيافي، وتخرج بأخفافها أفاحيص القطا وأوكارها .

ثم يشير إلى أنه كان مصاحباً لهم عندما وجدهم قد حلَّ النوم عليهم وغلبهم، فقد رأى أجسادهم ثقلت، ومال بهم الرحل، وهم على ظهور الإبل، حتى أوشكوا على الوقوع من على دوابهم، وعندما وجد الشاعر أن الأمر قد وصل بهؤلاء إلى هذه الدرجة، حاول أن يبقظهم من نومهم، ووجه لهم النصيحة بضرورة الإقلاع عن

---

(٢)(أسناء الرشا):أرفعها وأعلاها وواحد الأسناء سنى بالتشديد وأصله بالهمز لأنه من السناء الذي هو الرفعة والشرف لكن من شدد أبدل الهمزة ياء من أجل الياء التي قبلها وأدغم الياء الأولى في الثانية على الأصل المستعمل في الهمزة المتحركة التي قبلها ياء زائدة أو واو زائدة، و (الرشا): جمع رشوة وهى العطية التي يجابي بها الإنسان أو يخص،وقيل المراشاة:المحاباة

(٣)(تحلى بالشباب):لبسه وتزيا به، و(يستلبه):يجرده، و(هاتيك):بمعنى تلك، و(الحلى):جمع حلية .

(٤)(هيهات):بمعنى بعد، ومنه قوله ﷻ عن الكافرين: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾، و(مهما يستعر):أي ما يستعر لا بد لمعيره أن يأخذه، و(مسترجع):مردود، و(خطوب الدهر):أموره، و(الأسى):جمع أسوة وهي ما يتأسى به الإنسان مما ينزل بغيره لأنه يقتدي به ويتعزى به فيتصبر .

الكسل، والترفق في السير لأن نتيجة ذلك غير محمودة، وحثهم على الجد حتى يُحْمَدَ عاقبة سيرهم، ويصلوا إلى غايتهم بأمن وسلامة، وأن يحاولوا قطع المسير قبل إقبال النهر وحلوله عليهم، لأن النهار لو أدركهم لما استطاعوا السير، حيث الحرارة الشديدة قي هذه البيداء.

وبعد أن قام بحثهم على السير في الليل والجد فيه على الرغم من الظلام الحالك، اتبع ذلك بوصف بئر أو حوض بعيد العهد بالإنس،قد ارتفع ماؤه فتهدم بناؤها مخوف الأرجاء،تناثر ريش سباع الطير في نواحيها؛ لكثرة ما وردته واقتتلت على مائه، فأشبه الريش النصال الزرق المرهفة المحددة المعدة للرمي، ثم يقول إنه قد ورد هذه البئر الموحشة التي لا أنيس عندها سوى الذئب الذي يعوي حوله بأصوات منكرة مريعة بسبب الجوع، وهو على هذه الحالة أشبه بالذي أصابه الصمم وما كان ذلك منه إلاَّ لثبات قلبه وعظيم جرأته، يقول ابن دريد في ذلك :

وَفِتْيَةٍ سَامَرَهُمْ طَيْفُ الكَرَى ... فَسَامَرُوا النَّوم وَهُمْ غِيدُ الطُّلَى . (١)

واللَّيْلُ مُلْقٍ بِالْمَوَامِي بَرْكَهُ ... والْعِيسُ يَنْبِثْنَ أَفَاحِيصَ القَطَا . (٢)

بِحَيْثُ لاَ تُهْدَى لِسَمْعٍ نَبْأَةٌ ... إلاَّ نَئِيمُ الْبُومِ أَوْ صَوْتُ الصَّدَى . (٣)

شَايَعْتُهُمْ عَلَى السُّرَى حَتَّى إِذَا ... مَالَت أَدَاةُ الرَّحْلِ بِالجِبْسِ الدَّوَى . (١)

قُلْتُ لهم : إنَّ الهُوَينا غِبُّهَا ... وَهْنٌ فَجِدُّوا تَحْمَدوا غِبَّ السُّرَى . (٢)

ومُوحِشِ الأَقْطَارِ طَامٍ مَاؤُهُ ... مُدَعْثِرِ الأَعْضَادِ مَهْزُومِ الجَبَا . (٣)

---

(١)(الغيد):جمع أغيد وهو الناعم،وقيل:المائل العنق،وقيل:المائل المتثنى نعمة، و(الطلى):الأعناق.

(٢)(المواميِ):جمع موماة وهى الفقر،و(الرك):الصدر،و(العيس):البيض من الإبل، (أفاحيص القطا): أوكارها،و(ينبثن):يخرجن،والنبث والنبيثة:التراب الذي يخرج من البئر والنهر والجمع والنبائث .

(٣)(النبأة):الصوت الخفى، و(نئم البوم):صوته، والبوم:الهام، و(الصدى):ذكر الهام .

(١)(شايعتهم):تابعهم على السير ليلاً(السرى):سيرالليل، و(أداة الرحل):حوائجه وهي عيدانه من الإكاف وقطع الأكيسة والبرذعة، و(الجبس):الرجل الثقيل، و(الدوي): الأحمق .

(٢)(الهوينا):الرفق في السير فيها فور، و(غبَّ السُّرى):عاقبة، و(جدوا):اجتهدوا .

كَـأنَّمـا الـرِّيشُ عَلَى أَرْجَـائـِـهِ زُرقُ نِصـالٍ أُرْهِفَـتْ لِـتُمْتَـهَى .[1]
وَرَدْتُـهُ والـذِّئْبُ يَعْـوِي حَـوْلَـهُ مُسْتَكَّ سُمِّ السَّمْعِ مِنْ طُولِ الطَّوَى .[2]

وفي هذه الرحلة الصحراوية يتحدث عن عملية إنتاج النار عن طريق احتكاك الأغصان بعضها ببعض فيأتي ببيتين ملغزين، متبعاً في ذلك ذا الرُّمة الذي يقول[3]:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ الدِّيك عَاوَرْتُ صَاحِبِي أَبَـاهَـا ، وَهَيَّـأْنَا لِمَـوْقِعِهَـا وَكْـرا .[4]
مُشَهَّرَةٍ لاَ تُمْكِنُ الْفَحْلَ أُمُّهَـا إذَا نَحْنُ لَمْ نُمْسِك بِأَطْرَافِهَا قَسْراً .

(١)

(٣)(موحش الأقطار):يعني بئراً أو حرضاً،و(الوحش):ضد المؤنس لأن الوحشة ضد الأنس ففسر موحش بعيد العهد بالأنس،و(الأقطار):النواحي واحدهاقطر،(الطامي):المرتفع،(مدعثر):مهدوم،و(الأعضاء) ما حواليه من صفائح الحجارة التي تعضده أي تشده واحدها عضد،و(الجبا):بفتح الجيم:ما حول البئر والحوض،و(الجبا):أيضاً الذي يجى فيه الماء .

(٤) (تمتهى):تسقى بالماء،تقول امتهى الحداد السكين،أي سقاه بالماء،وقيل معنى(أُرْهِفَتْ):ههنا استلت عن كنانتها،وتمتهى أي تحد وهذا موافق لقول امْرئ القيس :

راشه من ريش ناهضه ثم امتها على حجرة

(٥)(مستك):ضيق سم السمع والاستكاك:الصمم،و(السم):الثقب وسم كل شئ وثقبه قوله: ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾أي ثقب الخيط،(الطوى):الجوع والطوى أيضاً خمص البطن وهو ضموره في.

(٦) ذو الرُّمة : ديوان ذي الرمة، شرح الإمام أبي نصر الباهلي ٢/١٥٥ ومابعدها، تقديم وتحقيق الدكتور واضح الصمد،الطبعة الأولى، دار الجيل سنة١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٤)(سقط):يعني النار حين سقطت من الزند كأنها عين الديك، و(عاورت صاحبي):أي هو يقدح مرة وأنا مرة، و(أباها):الزند الأعلى، وهو ذكر، و(هيأنا لموقع النار وكرا): أي موضعاً تُوقَد فيه قماش وبعر، ويروى (نازعت صاحبي)

قَدْ انْتِجَتْ مِنْ جَانِبٍ مِنْ جَنُوبِهَا ... عَوَانَاً وَمِنْ جَنْبٍ إِلَى جَنْبِهِ بِكْرَا . [٢]
فَلَمَّا بَدَتْ كَفَّنْتُهَا وَهْيَ طِفْلَةٌ ... بِطَلْسَاءَ لَمْ تَكْمُلْ ذِرَاعاً وَلاَشِبْرا. [٣]
وَقُلْتُ لَهُ : ارْفَعْهَا إِلَيْكَ فَأَحْيِهَا ... بِرُوحِكَ وَاقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرا. [٤]
وَ ظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ الشَّخْتِ وَاسْتَعِنْ ... عَلَيْهَا الصَّبَا وَاجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا. [١]
فَلَمَّا جَرَتْ فِي الْجَزْلِ جَرْيَاً كَأَنَّهُ ... سَنَا الْفَجْرِ أَحْدَثْنَا لِخَالِقِهَا شُكْرَا . [٢]
وَلَمَّا تَنَمَّتْ تَأْكُلُ الرِّمَّ لَمْ تَدَعْ ... ذَوَابِلَ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَ لاَ خُضْرَا. [٣]
أَخُوهَا أَبُوهَا وَالضَّوَى لاَ يَضِيرُهَا ... وَسَاقُ أَبِيهَا أُمُّهَا اعْتَقَرَتْ عَقْرَا. [٤]

فذو الرمة من أشهر شعراء وصف الصحراء والبادية، كما كان أحسن الشعراء تشبيهاً، قال عنه ابن سلام:« كان امرؤ القيس أحسن أهل طبقته تشبيها، وأحسن الإسلاميين تشبيها ذو الرمة » . [١]

---

(١)(مُشَهَّرَة):يعني: النار، و(أَمُّهَا):الزندة السفلى، والأعلى ذَكَرٌ، وهي لا تستوي إذا قُدِحَ بها حتى تُمْسَكَ إمساكاً شديداً، و(قسراً):قهراً، و(لا تُمْكِنُ):يقول:منعته– الزندة السفلى الزند الأعلى– حتى نمسكها قهراً .

(٢)(انْتِجَتْ مِنْ جَانِبٍ مِنْ جَنُوبِهَا):يعني:خروج النار من فرضة الزند، و(الفُرْضَةُ):الثقب الذي تقدح النار منه، وقوله :(عواناً)يعني الفرضة التي قدح منها مرة، و(البكر):التي لم يقدح منها قط غير هذه المرة .

(٣)يريد:لما بدت النار،أي ظهرت"كَفَّنْتُهَا"،يريد:صيرتها في خرقة وسخة تضرب إلى السواد.

(٤)(ارفعها):أي ارفع النار، و(اقتته):أي انفخ نفخاً ضعيفاً قوتك،ومعنى(اقتته):افتعله من القوت، كما تقول من (قُلْتُ): (اقتَلْهُ)، و(القوت):ما لا بد منه .

(١)(الشخت):ما دقَّ من الحطب، و(ظاهر لها):أي عالها بالحطب الرقيق، و(ظاهر لها):أي أعِنْها باليابس، يعني النار .

(٢) ويروى:(فلما جرت في الشخت)، يعني: النار،(في الجزل):في الحطب الغليظ، كأنه" سنا الفجر"، أي: ضوء الفجر، و(الشخت):أجود .

(٣)(تنمت):أي ارتفعت وعلت، و(ذوابل):وهو ما جف من الحطب، و(الرِّمَّ):العظام البالية .

(٤)قوله:(أخوها أبوها) يريد:أخو الزَّندة أبو النار، وإنما صير الزندة السفلى أخا للأعلى لأنهما من غصن قُطِعا،وقوله:(والضوى لايضيرها)، يقول لا يضير النار أن يكونا من شجرة واحدة، = =كالرجل يتزوج قريبته، فيخرج الولد ضاوياً، فالضوى هاهنا لا يضير النار كم يضير ذلك،وقوله: (وساق أبيها أمها)، يقول: ساق الأب هي الأم، و(اعتقرت):أي:كُسِرَتْ، وذلك أنهما أُخِذَا من شجرة واحدة.

ويقول عنه ابن رشيق : « قال عمرو بن العلاء: ختم الشعر بذي الرمة ... وقالت طائفة من المتعقبين: الشعراء ثلاثة: جاهلي، وإسلامي، ومولد، فالجاهلي امرؤ القيس، والإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز، وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر» (٢)

وقد سبق ابن دريد في هذا المعنى أوس بن حجر والنابغة وكعب بن زهير فأما قول كعب :

حَرْفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ وَعَمُّهَا خَالُهَا فَوْدَاءُ شِمْلِيلُ.

يقول ابن دريد :

وَمُنْتِجٍ أُمُّ أَبِيهِ أُمُّهِ لَمْ يَتَخَوَّنْ جِسْمَهُ مَسُّ الضَّوَى. (١)

---

(١)الجمحي(محمد بن سلام):طبقات فحول الشعراء ٥٥/١ ، ٥٤٩/١ تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، نشر مكتبة الخانجي .

(٢)ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده ٨٩/١ ،١٠٠ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة .

(٣)(ومنتج):فيه قولان:**أحدهما** أن يكون مفتعلاً من (النجوة)، وهو المكان المرتفع، فيكون الأصل فيه(منتجو)فوقعت الواو في موضع حركة، وقبلها مكسور، فسكنت وقلبت لكسرة ما قبلها فصارت ياء ساكنة دخل عليها التنوين فسقطت لالتقاء الساكنين، وهذا الوجه الصحيح، **والثاني**:وهو الوجه الضعيف، أن يكون (منتج) مفعلاً من النتاج، فيكون غلطاً في اللغة لأنه إنما يقال نتجت الناقة ونتجها أهلها فمحال أن يأتي من الثلاثي اسم المفعول على مفعل، وإنما يكون على مفعول، كما يقال ضرب مضروب، وإنما يأتي على مفعل من الرباعي كقولك أكرمته فهو مُكْرَمٌ، والزجاج يرى أن (نتج) و(أنتج) واحد وعلى هذا فجائز، وقيل إن = = نتجت الناقة إذا ظهر نتاجها (أم أبيه أمه) يحتمل هذا وجهين:يجوز أن يريد بأم أبيه التي هي أمه الأرض فكأنه وصف غصيناً بيت من غصبن قطع من شجرة فالأرض أم الشجرة،وأم الغصن الذي نبت منه الغصن الثاني الذي هو أبو الغصن الأول ويحتمل أن يريد غصناً قطع من فرع من شجرة فتلك الشجرة أم الفرع،والفرع الأب على سبيل الاستعارة والشجرة أم الفرع وأم الغصن لأنه منها فصارت أما لأبيه وأماله."لم يتخون":أي لم يتعاهد يقال فلان يتخاونه الخبل أي يتعاهده، والتخون أيضاً التنقص ، ويروى لم يتخور جسمه بالراء وهو من الخور،والخور:الضعف، يقال: خار الرجل خوراً إذا ضعف

أَفْرَشْتُهُ بِنْتَ أَخِيهِ فَانْثَنَتْ عَنْ وَلَدٍ يُورَى بِهِ وَيُشْتَوَى. (١)

وما زال الشاعر يصور جوانب هذه الرحلة الخيالية الصحراوية فيتحدث عن جبل صعب المرتقى، مرتفع شامخ، كل النواحي فيه ملساء، لا تثبت عليه قدم، ولا تستمسك به يد تعجز القوى عن الوصول إليه لوعورته وصعوبة السير والاهتداء فيه .

لقد صعد فوقه على الرغم من خطورته ووعورته وقت الظهيرة والشمس كالحية تلقي ريقها، تنشر سمومها في الجو، وذلك حين يشتد أوارها وحرها، وتتوسط الشمس في كبد السماء، فتنعدم الظلال، ويكون الظل تحت قدم السائر، لقد صعد ليراقب الطريق، والشمس تلفح الوجوه بأشعتها الملتهبة وفي هذه الصحراء الموحشة، أضاء الشاعر النيران ليلاً ليهتدي بها العابرون فيأوون إليه ويقدم لهم القِرَى، وهذه عادة من عادات العرب، يقول ابن دريد :

وَمَرْقَبٍ مُخْلَوْلِقٍ أَرْجَاؤُهُ مُسْتَصْعَبِ الْمَسْلَكِ وَعْرِ الْمُرْتَقَى . (٢)
وَالشَّخْصُ فِي الآلِ يُرَى لِنَاظِرٍ تَرْمُقُهُ حِيناً وَحِيناً لا يُرَى .
أُوفَيْتُ وَالشَّمْسُ تَمُجُّ رِيقَهَا وَالظِّلُّ مِنْ تَحْتِ الحِذَاءِ مُعْتَذَى . (٣)

و(الضوى):الهزال،ومنه غلام ضاو وجارية ضاوية،وقال ابن خالويه:يعني النار إذا قدحت من الزندة،و(الزندة):وهما خشبتان العرب توري منهما النار إلاَّ على الزند والسفلى الزندة، ويقال في الشجر كله النار واستحمد والعضاة، قال الله ﷻ:﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا ﴾ يعني الأخضر إذا يبس يوري منه النار، فأقام هذه النار الزندة، وأبوها الزند وهما من شجرة واحدة، و(لم يتخون):لم ينقص .

(١)(أفرشته) يعنى فرشت للزند الأعلى بيت أحنه الزندة السفلي(فانثنت عن ولد) يعني النار ،ويقال إذ خرجت من الزندة السقط،(ويورى به)أي يستضاء به،(يشوى) به يقال:شويت اللحم واشتويته

(٢)(المرقب):الموضع العالي الذي ينظر منه إلى بعد،(المخلولق):الأملس(أرجاؤه):نواحيه، و(المستصعب):الصعب(المسلك):الطريق وجمعه مسالك،(الوعر):الصعب:(المرتقى):المصعد

(٣)(أوفيت):أوتيت ووصلت، و(تمج ريقها):تلقيه، وريقها: لعابها،ولعاب الشمس وريق الشمس إنما يكون وقت الظهيرة، وهو أشد ما يكون فيه الحر، فيتبين في ذلك الوقت

وطَارِقٍ يُؤْنِسُهُ الذِّئبُ إِذَا تَضَوَّرَ الذُّئبُ عِشَاءً وانْضَوَى . (١)

آوَى إِلَى نَارِيَ وَهْيَ مَأْلَفٌ يَدْعُو العُفَاةَ ضَوءُهَا إِلَى الْقِرَى . (٢)

في الشمس مثل نسج العنكبوت خفي يسمونه لعاب الشمس، وريق الشمس ولا يكون لشيء في ذلك الوقت ظل إذا كانت الشمس في وسط السماء،ومعنى(والظل من تحت الحذاء محتذى): أي ملصق، والحذاء: النعل .

(١)(الطارق):الذي يجيء بالليل ولا يكون الطارق نهاراً، و(تضور):صاح من الجوع، والتضور الصياح من الجوع .

(٢)(آوى إلى ناري):أي انضم إلى ناري، تقول أويت إلى فلان بغير وزن فَعَلْتُ، آوى إليه ممدوداً في المستقبل، على وزن أَفْعَلُ، فأما إذا كنت مد على أنت الذي تؤويهأي تضمه فتقول آويته بالمد على وزن أفعلته أؤويه إيواءً على وزن أفعالاً ، ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَفَصِيلَتُهُ الَّتِي تُؤْوِيه ﴾أي تضمه وتنسبه إليها و(المألف): الموضع الذي يجتمع فيه الأحباء كأنه يؤلفهم فلذلك سمي مألفاً،

و(العفاة):الفقراء واحدهم عاف مثل قاضى وقضاة(القِرى):الضيافة، و(يدعو العفاة):أي يندبهم ضوؤها

حادي عشر : طـيف خـيـال الحـبيب

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ثم يتحدث عن طيف خيال الحبيب حديثاً يملأه العجب، إذ يقول ما أعجب هذا الزائر الذي زارني طيف خياله، وقد أرتني الأحلام إياه، تلك الرؤى التي أراها في منامي، وقد قامت هذه الأحلام بزفاف طيف الحبيب إلى قلبي كما تُزَف العروس إلى زوجها، ثم يقوم بوصف حبيبه الذي زاره طيف خياله بأنه يسري في الليل وسط الصحارى والفلوات، غير عابئ بكل ما يلقاه من أخطار وصعوبات وأهوال.

ثم يجرد من نفسه شخصاً يحدثه ويطلب منه أن يقوم بسؤال هذا الطيف فربما يجيبه عن سؤاله أو يجلي عن أخباره إن كان في استطاعته البيان، وهذه الأسئلة التي تراود خلده تتمثل في إنه من أين أقبل راكباً هول الليالي، وكيف اهتدى إلى مكان الشاعر، وذلك لأن هذا المكان الذي أقام الشاعر فيه مكان مخيف منقطع لا يرده أحد، ولا يهتدي إليه كائن، بما في ذلك الأطياف، إذ يستبعد أن تمر به، وذلك لأن الجان نفسه لا يقدر على الوصول إليه عبر هذه الصحراء المتقدة .

لقدجاءه هذا الطيف من بعيد يجوبها مهتدياً إليه، على الرغم من الظلام والأهوال، إنه لا يدري شيئاً عن موضعه من بلاد فارس وما فيها من قفار وقرى، وهو لا شك متأثر بوصفه للخيال الذي طرقه من بلاد فارس بذي الرُّمة الذي ناجى محبوبته بمثل ذلك حين طرقه، يقول ذو الرمة في ذات المعنى:(١)

أَلاَ لا أَرَى الْهِجْرَانَ يَشْفِي مِنَ الْهَوَى ... وَلاَ وَاشِيَاً عِنْدِي بِمَيٍّ يَعِيبُهَا .
إِذَا هَبَّتِ الأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ جَانِبٍ ... بِهِ أَهْلُ مَيٍّ هَاجَ شَوْقِي هُبُوبُهَا .
هَوَىً تَذْرِفُ الْعَيْنَانِ مِنْهُ وَإِنَّمَا ... هَوَى كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبُهَا

(١) ذو الرُّمة : ديوان ذي الرمة، شرح الإمام أبي نصر الباهلي ٣٣٨/١ وما بعدها، تقديم وتحقيق الدكتور واضح الصمد،الطبعة الأولى، دار الجيل سنة١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَمُوتَنَّ عَاصِمٍ وَلَمْ تَشْتَعِبْنِي لِلْمَنَايَا شَعُوبُهَا .
وَهَلْ يَجْمَعَنْ صَرْفُ النَّوَى بَيْنَ أَهْلِنَا عَلَى الشَّحْطِ وَالأَهْوَاءُ يَدْنُو غَرِيبُهَا .

يقول ابن دريد :

لَلَّهِ مَا طَيْفُ خَيَالٍ زَائِرٍ تَزُفُّهُ لِلْقَلْبِ أَحْلاَمُ الرُّؤَى . (١)
يَجُوبُ أَجْوَازَ الفَلاَ مُحْتَقِراً هَوْلَ دُجَى اللَّيلِ إِذَا اللَّيلُ انْبَرَى . (٢)
سَائِلْهُ إِنْ أَفْصَحَ عَنْ أَنْبَائِهِ أَنَّى تَسَدَّى اللَّيْلَ أَمْ أَنَّى اهْتَدَى . (٣)
أَوْكَانَ يَدْرِي قَبْلَهَا مَا فَارِسٌ وَمَا مَوَامِيهَا الْقِفَارَوَالْقرَى . (٤)

(١)(لله ما طيف):اللام في هذا بمعنى التعجب، يقال لله زيد ما أكمله في جميع حالاته،وما زائدة والتقدير لله طيف خيال،و(الطيف):ما يراه الإنسان النائم في صورة محبوبته،و(الخيال): الشخص الذي يتخيل لك،و(تزفه):تحمله من قولك زفت العروس إلى زوجها أزفها إذا حملتها إليه،و(الأحلام): جمع حلم،و(الرؤى):جمع رؤيا .

(٢)(يجوب):أي يقطع، و(أجواز):أوساطها جمع جوز، و(الفلا):جمع فلاة من الأرض، و(محتقراً): مستصغراً لهول دجى الليل،و(انبرى):اعترض ينبري انبراء فهو منبرٍ واسم المفعول مُنبرىً إليه الشدة وجمعه أهوال .

(٣)(سائله):يعنى الخيال،و(عن أنبائه):عن أخباره وواحد الأنباء نبأ،و(إن أفصح):إن أبان يقال أفصح يفصح إفصاحاً فهو مفصح، و(أنَّى): أي كيف، ومنه قوله ﷻ:﴿ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ أي من أين لك هذا،و(تسدى):امتد في السير،وقيل تسدى الليل قطع الليل بالسير، يقال سديت الوادي إذا قطعته،ويقال تسدى ركب،ويقال تسديت الشيء أتسديا إذا ركبته وعلوته عليه ومنه قول امرئ القيس :

فَلَمَّا دَنَوْتُ تَسَدَّيْتُهَا فَثَوْباً لَبِسْتُ وَثَوْباً أَجُرُّ

(٤)(أو كان يدري قبلها):يريد قبل هذه الزورة ثم أضمر وجاء بالمضمر لأن سياق الكلام يدل على الضمير، و(ما فارس):يريد أرض فارس فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه،و(المواميي):القفار واحدها موماة،و(القرى):المدن واحدها قرية .

ثاني عشر : أسباب فراقه لأرض العراق

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

يعود الشاعر للحديث عن الحنين إلى وطنه وأهله العراق، بعد أن يجرد من نفسه شخصاً يضعه في مكانه المتعجب الذي يستنكر على الشاعر فراقه على الرغم من محبته له كل هذا الحب، ثم يُعْزي فراقه له إلى القدر الذي لا مفر منه، فهو الذي عَرَّضَهُ للمتاعب، ليضطر إلى الارتحال، ومُفَارَقَة الأهل والوطن، ومادام الأمر كذلك لأن سؤاله لا يجدي، ليسأل القدر نفسه، وما يصيب الإنسان،هل يوجد عاصم وملجأ يحول بين الإنسان وأحداثه؟ وهل هناك ما يدفع عنه الغوائل والنوائب؟ إنه لا مفر من قضاء الله، لأن ما يكتبه الله على الإنسان في غيبه واقع لا ريب وما عليه إلاَّ الرضا يقول ابن دريد :

وَسَائِلِي بِمُزْعِجِي عَنْ وَطَنٍ ... مَا ضَاقَ بِي جَنَابُهُ ولا نَبَا . (١)

قُلْتُ القَضَاءُ مَالِكٌ أَمْرَ الْفَتَى ... مِنْ حَيْثُ لاَ يَدْرِي وَمِنْ حَيْثُ دَرَى.

لا تَسْأَلَنِّي وَاسْأَلِ الْمِقْدَارَ هَلْ ... يَعْصِمُ مِنْهُ وَزَرٌ وَ مُزْدَرَى. (٢)

لابُدَّ أَنْ يَلْقَى امْرُؤ مَا خَطَّهُ ... ذُو الْعَرْشِ مِمَّا هُوَ لاَقٍ وَوَحَى . (٣)

---

(١)(وسائلي):أضاف وهو يريد الانفصال، وذلك أنه جعله نكرة لأن الواو واو ربَّ، أراد ورُبَّ سائلٍ فأضاف، ومما أضيف ومعناه الانفصال قول الله ﷻ:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾أي كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ الْمَوْتَ، و(بمزعجي):أي بمزيلي ومخرجي، والباء فيه بمعنى عن كأنه قال وسائلي عن مزعجي، والعرب تقول رُبَّ سائلي بزيد أي عن زيد، (الوطن): المحل وجمعه أوطان، و(الجناب):بفتح الجيم الناحية، و(ولا نبا):أي ولا ضاق

(٢)(لا تسألني)يرد على السائل الذي سأله عن السبب الذي أزعجه وأخرجه عن وطنه،(المقدار): القدر وهو ما قدر على الإنسان من خير وشر،(الوزر):الملجأ وجمعه أوزار، (المزدري):المكان المرتفع المانع وهو من الذروة أعلى الجبل، وقيل أو مذري أراد به جانباً عزيزاً .

(٣) (خطّه):كتبه،(ذو العرش):المقصود به الله سبحانه وتعالى،(وحى):كتب .

هذا عن المقدار ناهيك عن الزمان الظالم الذي يُلقي بأعبائه الثقال على من شرف حسبه، وكم للزمان من عجائب فقد تراه يلح على الإنسان ويوجه إليه سهامه التي تحوي بين جنباتها الإساءة والمكروه، ويهيل عليهم من مصائبه ما لا يمكن أن يتخيله بشر، تلك المصائب تبدد الجمال والحسن وتمحوهما.

ثم يعمد إلى تصوير هذا المعنى تصويراً يبدو فيه التأثر بالبيئة والطبيعة، إذ يصور حال الزمان وما يلقيه على الإنسان من مصائب ونوائب بحال المرض الذي يعتور الدابة القوية العظام السمينة الممتلئة باللحم، فيقوم بافتراسها وإزالة ما عليها من اللحم والبضاضة والسمن، ويمتص ما فيها من المخ والدهون، ثم يتركها بعد ذلك جلوداً على عظام شاحبة اللون ضعيفة واهنة القُوَى .

والمتأمل في الصورة السابقة يدرك أنه مثل لما يصيب أشراف الناس ويلحقهم من العدم والفاقة، وقد وظف الشاعر الأمثال العربية للتعبير عن فكرته التي يقوم بعرضها، وربما يحدث خلاف ذلك، حيث نرى الإنسان الفقير البائس قد أقبلت الدنيا عليه، وعظم ماله واستغنى وعَزَّ أمره بعد أن كان فقيراً معدماً، ثم يصوره أيضاً بصورة الأرض القاحلة التي لا نبات فيها قد اخضر أديمها بالعشب والنبات، وترعرع فيها الشجر وجاد بالثمر، يقول ابن دريد :

لا غَـرْوَ إِنْ لَـجَّ زَمَـانٌ جَـائِــرٌ فَاعْتَرَقَ العَظْمَ المُخَّ وانْتَقَى . (١)

فَقَدْ يُرَى القَاحِلِ مُخْضَرّاً وَقَـدْ تَلْفَى أَخَا الإِقْتَارِ يَوْماً قَدْ نَما . (٢)

ثم تعود بالشاعر ذكرياته وخواطره إلى بعض الذكريات وإلى بعض لحظات مرَّت به قضى فيها وقتاً جميلاً بين اللهو والعبث والمجون، وهو الآن

---

(١)(لا غرو):لا عجب،(لج زمان):عرض وألح زمان،(اعترق العظم):أي أزال عنه اللحم،(الممخ):الذي فيه المخ (انتقى):استخرج منه النقي وهو المخ .

(٢)(القاحل):اليابس،(أخو الإقتار):المقل من المال،(نما):زاد واستغنى .

يلوم نفسه على هذا الوقت ويزجرها، كما يُعَنِّفُ كل من يحاول أن يتبع النساء والجمال بعد زمان الصبا والطيش يقول :

يَا هَؤُلَيَّا هَلْ نَشَدْتُنَّ لَنَا ... نَاقِبَةَ الْبُرْقُعِ عَنْ عَيْنَيْ طَلا . (١)

مَا أَنْصَفَتْ أُمُّ الصَّبِيَّيْنِ الَّتِي ... أَصبَتْ أَخَا الحِلْمِ وَلَمَّا يُصْطَبَى . (٢)

اسْتَحِ بِيضاً بَيْنَ أَفْوَادِكَ أَنْ ... يَقْتَادَكَ البِيضُ اقْتِيادَ الْمُهْتَدَى . (٣)

هَيْهَاتَ مَا أَسْفَعَ هَاتَاً زَلَّةً ... أَطْرَبَاً بَعْدَ الْمَشِيبِ وَالْجَلا . (٤)

وجدير بالذكر إن ابن دريد عندما تحدث عن المرأة الحسناء التي تخفي عينين ساحرتين تحت نقاب وبرقع تضعه على وجهها، فإنه صور هاتين العينين بصورة عيني البقرة الوحشية اللتين تتمتعان بحور أخاذ خلاب يسحر الناظر إليهما من شدة جمالهما .

والحقيقة التي لا ينبغي تجاهلها أن هذه الصورة قد تطرق إليها قبله عدد كبير من الشعراء، ولعل أقربهم لفظاً ومعنىً هو الشاعر عدي بن الرقاع العاملي الذي يقول :(١)

---

(١)(هؤليا):تصغير هؤلاء،(نَشَدْتُنَّ):طلبتن،وقيل نَشَدْتُنَّ عَرَفْتُنَّ من قولهم نشدت الضالة إذاعرفتها، (نَاقِبَةُ البرقع):أي مُغَطِّية البرقع والمتقنعة به،(الطلا):بفتح الطاء ولد البقرة الوحشية وجمعه أطلاء.

(٢)(ما أنصفت أم الصبيين):هذا لفظ العرب تمدح به المرأة الكاملة،وقيل أم الصبيين يعنى بالصبيين العينين سميا بذلك للشخص الذي يرى فيهما كالصبيين وهو الذي يسمى إنسان العين وهذا قول حسن،و(أصبت أخا الحلم):أي ردته إلى الصبا وهو اللهو، و(الحلم):العقل، و(لما يصطبي):أي لم يرد إلى الصبا،فلما هنا بمعنى لم يرد قبل ذلك إلى الصبا .

(٣)(بيضاً):أراد من بيض فلما أسقط من تعدى النقل فنصب والبيض الأول هو المشيب، والبيض الثاني:هوالنساء، و(بين أَفْوَادُك):جمع فود والفودان جانبا الرأس أي ناحيتاه من يمين وشمال،و(يقتادك):يقودك ويسوقك، واقتياد:سوق و(المهتدي): الأسير.

(٤)(أشنع):أقبح، و(الزلة):الخطيئة والسقطة، و(الجلا):أصلها الجلاء فقصرالممدود: انحسار الشعر عن مقدم الرأس .

وَكَأَنَّهَا وِسْطَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنَيْنِ أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ
وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

ولكن على الرغم من إعجاب الشاعر بعيني هذه المرأة الساحرتين إلاَّ أننا نلمح أنه يسلك طريق الزجر والتعنيف لمن يتبع هؤلاء النساء الفاتنات، والجري وراء جمالهن لاسيما بعد زمان الصبا، أي في زمن المشيب .

إنه غير راض عن هؤلاء المتصابيين، وأكبر دليل يبرز لنا ذلك أنه عندما قام بمناداتهم استخدم صيغة التصغير وما تعكسه هذه الصيغة من دلالة التحقير، كل ذلك ليدل على أن طلب النساء إنما يكون في زمن الحداثة، فهذا ردع للأشيب من الرجال .

وكما قام بزجر الرجل الكبير المسن الذي يبتغي النظر إلى النساء الجميلات، قام أيضاً بزجر المرأة الفاتنة، إذ ليس من الإنصاف من هذه الفاتنة التي كبرت وأصبحت أم صبيين أن تبتذل جمالها، وتعرضه في سوق البطالة والهوى، كما تعرض الحكيم العاقل الحليم الذي لم يقع في شرك الفاتنات من النساء من قبل، ومن ثَمَّ يقع بسببها أسير الهوى .

ثم يعود من جديد لخطاب الأشيب من الرجال الذي ابْيَضَّ شَعْرُ رَأْسِهِ وظهرت طلائع المشيب عليها قائلاً : إن سنك قد كبرت وعقلك قد تم واكتمل ورجح، فيجدر بك أن تتبع الحزم، ولا تتبع الهوى والجري وراء جمال المرأة، فتساق إلى حتفك كما تساق الذبائح التي تهدى في المشعر الحرام لتنحر وتسفك دماؤها، كما إنه لجدير بك أن تكون أنت الهادي الذي يرشد غيره، لا أن تكون أنت المهتدى فدية أو هدياً يضحى به .

---

(١)عدي بن الرقاع العاملي: ديوانه ص٩٩ ،١٠٠ جمع وشرح ودراسة الدكتور حسن محمد نور الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٠ هـ /١٩٩٠ م .

أما إذا تصابيت وسرت في درب الهوى، فبئس الصنيع، وبعداً له، لأنه حينئذ سيكون زلة عظيمة تشينك، وتجعلك في مكانة لا تليق بك، أفيليق بك أن تطرب وتلهو بعد أن غزا المشيب رأسك، وجلا الشباب بزينته عنك .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ثالث عشر

وصف الخمـــــــر

ينتقل الشاعر مع قرب نهاية المقصورة إلى وصف الخمر فيصف مجلس لهو قد شرب فيه أيام الشباب واللهو والمرح بمجالس الشراب فيقول : كم من ليل وصلت لي طرفيه صبوحه وغبوقه الخمر المعتقة التي لبثت في دُنِّها ثمانين عاماً، كانت حين تدار علينا كؤوسها مع الوصائف والوصيفات كعروس أبرزت من خدرها، وزفت مع أترابها ولدانها لبعلها .

ثم يواصل حديثه عن الخمر الصافية التي صانها الخمار ضناً بها على سواه، فرقت وصفت بسبب طول حبسها فى الدنان، تضئ إذا صبت في الأقداح حتى كأن الشمس عند إشراقها قد اقتبست منها الضوء، والبريق، هذه الخمر لم تمزج بماء حتى يُكسر حدتها، فلا تكون قوية، ومن ثم فهي قوية لم يلحقها المزج بوهن ولا فتور أو كلال، ومن ناحية أخرى فقد تم تخميرها دونما أن تضرم نار لها،لأن الضرام يدنسها ويذهب كريم طباعها، ثم يصرح الشاعر بأن هذه الخمر في بعض الأحيان قد تكون داء، وذلك عند أول شربها، فإذا أُصيب شاربها بدائها فإن شربها يكون هو الدواء، وهذه مغالطة، وقد وردت هذه المغالطة وفقاً لقول أبي نواس:[1]

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللومَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

ثم يواصل حديثه عن الخمر الصافية التي صانها الخمار ضناً بها على سواه، فرقت وصفت بسبب طول حبسها فى الدنان، ومنع عنها كل يد ، وقام بتخبئتها في الستور والمخابئ، كما إنها لطول ما حفظت رقت وخفت وصفت، فيخيل للرائي أن الخمر لشدة صفائها وصفاء الزجاجة، كأنها قائمة بدون قدح، أو أن القدح قائم بدون خمر،كما أنهذه الخمر حين تصب في الأقداح تضئ حتى كأنها الشمس عند إشراقها قد اقتبست منها الضوء، والبريق، وقد تناول هذا المعنى شعراء كثيرون، منهم قول الشاعر البحتري[2]:

يُخْفِي الزُّجَاجَةَ لَوْنُهَا فَكَأَنَّهَا فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ إِنَاءِ

---

(١) أبو نواس(الحسن بن هانئ) : ديوانه ص تحقيق عبد المجيد الغزالي،

(٢)البحتري(أبو عبادة): ديوانه ١/ ،تحقيق حسن كامل الصيرفي، طبعة دار المعارف بالقاهرة

كما يقول الشاعر في ذات المعنى أيضاً :

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحٌ وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرُ

ولقد شاركت نديماً في شرب الخمر هذا النديم حسن المنظر جميل الصورة رائع الحسن مؤدب، لا تخشى بادرته حين تلعب الخمر بعقله وينتشي ويذهب لُبّه بل يظل هادئ الطبع حلو المجالسة لطيف الصحبة، كما أن هذا النديم أنطقته الخمر فجعلته أديباً راوية ناثراً وشاعراً مرتجلاً ألفاظاً جميلة كأنها أزاهير الرياض في الملاحة والنضارة والخفة على السمع، يقول الشاعر:

يَا رُبَّ لَيْلٍ جَمَعَتْ قُطْرَيْهِ لِي بِنْتُ ثَمَانِينَ عَرُوساً يُجْتَلَى . (١)
لَمْ يَمْلِكُ الْمَاءُ عَلَيْهَا أَمْرَهَا وَلَمْ يُدَنِّسْهَا الضِّرَامُ الْمُحْتَضَى . (٢)
حِيناً هِيَ الدَّاءُ وَأَحْيَاناً بِهَا مِنْ دَائِهَا إذا يَهِيجُ يُشْتَفَى .
قَدْ صَانَهَا الخَمَّارُ لَمَّا اخْتَارَهَا ضَنّاً بِهَا على سواه واخْتَبَى . (٣)
فَهْيَ تُرَى مِنْ طولِ عَهْدٍ إنْ بَدَتْ فِي كَأْسِهَا لأَعْيُنِ النَّاسِ كلا . (٤)
كَأَنَّ قَرْنَ الشَّمْسِ فِي ذُرورِهَا بِفِعْلِهَا فِي الصَّحْنِ وَالكَأْسِ اقْتَدَى. (٥)

نَازَعْتُهَا أَرْوَعَ لاَ تَسْطُو عَلَى نَدِيمِهِ شِرَّتُهُ إِذَا انْتَشَى. (١)

---

(١)(جمعت قطريه):أي جانبيه وهما هنا الطرفان أول الليل وآخره،(بنت ثمانين): ههنا الخمر ،وإنما سماها بنت ثمانين لأن من شربها أوجبت عليه ثمانين جلدة،(تَجْتَلِي):تجلى من جلوت العروس وهو إظهارها .

(٢)(لم يملك الماء عليها أمرها):يريد لم تمزج بالماء فتكسر حدتها وسورتها،(لم يدنسها):لم يغيرها، و(الضرام):الحطب الدقيق يوقد به الحطب الغليظ، و(المحتضى):العود الذي تحرك به النار من قولهم،حضأت النار إذا حركتها،وأحضأتها:إذا أشعلتها .

(٣)(قد صانها الخمار):أى حفظها،و(ضناً):أي بخلاً،و(اختبى):خبى أي ستر،وقوله:(كلا):أي كلا خمر.

(٤)قوله:(كلا):أي كلا خمر .

(٥)(قرن الشمس):أي شعاعها،(ذرورها) بالذال المعجمة طلوعها يقال ذرت الشمس إذا طلعت،و(الصحن):القدح الكبير الواسع،(اقتدى):اتبع أثره .

(١)(نازعتها):أي نازلتها وأدرتها ومنه قوله ﷻ: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ (الأروع):

١٩٧- كَأَنَّ نُورَ الرَّوْضِ نِظْمَ لَفْظِهِ مُرْتَجِلاً أَوْ مُنْشِداً أَوْ إِنْ شَدَا .(١)

رابع عشر
خاتمة المَقصورة

الأحسن منظراً،(لا تسطو):أي لا تعدو مأخوذ من السطوة يقال سطا يسطو سطوة إذا عدى عليه،(النديم):الصاحب،(الشرة):الحدة،(انتشى):سكر بأثر الخمر .

(2)(النور):الزهر،(المرتجل):الذي يأتي بما يخطر على باله على البديهة بغيراستعداد، (أومنشداً):أي منشداً للشعر .

وينهى الشاعر مقصورته الرائعة وملحمته الخالدة ببيان أنه لم يفته شيء من لذائد الدنيا، فإن وافاه أجله وقد نال ما نال فقد تناهت لذته، وحقق كل ما يرغب فيه أي إنسان مثله، ومن ثم فهو لا يخاف الموت إذن، فقد ترك خلفه سيرة عطرة، وذكراً حسناً، كما أنه قد جرب الحياة وتعلم من دروسها الكثير والكثير، ومن الأمور التي تعلمها اعتزازه بعقله، والسمو بنفسه عن مجالسه رواد الفحش، والترفع عن صغائر الأمور وحاشاه أن يُرَى خاضعاً أو يستخفه ابتهاج أو لهو، وكل بيت من الخاتمة وكل لفظ فيها يؤذن بحسن ختام المقصورة وحسن ختام العمر يقول ابن دريد :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الفَتَى قَدْ نِلْتُهُ وَالْمَرْءُ يَبْقَى بَعْدَهُ حُسْنُ الثَّنَا .(١)
فَإِنْ أَمُتْ فَقَدْ تَنَاهَتْ لَذَّتِي وَكُلُّ شَيءٍ بَلَغَ الحَدَّ انْتَهَى .
وَإِنْ أَعِشْ صَاحَبْتُ دَهْرِي عَالِماً بِمَا انْطَوَى مِنْ صَرْفِهِ وَمَا انْتَشَى .
حَاشَا لِمَا أَسْأَرَهُ فِي الحِجَا وَالْحِلمُ أَنْ أَتْبَعَ رُوَّادَ الْخَنَا (٢)
أَوْ أَنْ أُرَى لِنَكْبَةٍ مُخْتَضِعاً أَوْ لابْتِهَاجٍ فَرِحاً وَمُزْدَهَى .(٣)

وبعد فهذه المقصورة التي نالت شهرة واسعة، والتي قام بمعارضتها بعض الشعراء وكذلك قام بتخميسها بعض آخر منهم، وقام بشرحها أكثر من واحد، وهي تبرز لنا مدى براعة الشاعر ومقدرته على نظم المطولات، وتدفع االاتهام الخاطئ بعجز الشعراء العرب عن نظم الملاحم على طريقة الملاحم اليونانية

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١)(الثنا):التكلم .

(٢)(أسأره):أبقاه .

(٣)(مختضعاً):متذللاً، و(المزدهي):المستخف،وقيل:المعجب .

الدراسة الفنية
لمقصورة ابن دريد

❁❁❁❁❁❁❁

أولاً :البناء الهيكلي للقصيدة

لاشك أن القصيدة الشعرية في الشعر العربي القديم قد أخذت سمتاً وشكلاً خاصاً تعارف عليه الشعراء، واتخذه النقاد القدامى ضابطاً ومعياراً لنقد الشعر، والقصيدة الحقة ليست سلسلة من الأبيات أو الأشطر الجذابة التي يستقل كل منهما بنفسه وليس له أية علاقة لازمة ببقية العمل، وليست كذلك نسيجاً متهافتاً

نخلص منه بالنتيجة العامة سريعاً دون أن نكون مسوقين إلى اكتناه حقيقة العمل المتميزة، بتكشف الأجزاء المكونة له التي تجعل منه وحدة متآلفة، أو كلاًّ متلاحماً،[1] تلك الأجزاء التي تمثل نهج القصيدة في مفاهيم النقاد تتمثل في العناصر التي سنلقي على كل واحد منها الضوء من خلال مقصورة ابن دريد .

مطلع المقصورة :

والحقيقة إن المطلع من أهم الأجزاء التي حظيت باهتمام النقاد، وعناية القدماء، فقد ورد عنهم أنهم قالوا : «أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان »[2] ، كما كانوا يوجبون على من يتعرض للقريض، وكتابة القصائد أن يكون مفتتح كلامه ملائماً لذلك المقصد دالاً عليه شعراً كان أم نثراً . [3]

---

(١) يفد ديتشس : مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ص١٥٩، ١٦٢، ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم ومراجعة الدكتور إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٧م

(٢)العسكري(أبو هلال الحسن بن سهل ت٣٩٥ هـ): كتاب الصناعتين ص٤٣١ تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٢ م

(٣)ابن الأثير(ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري ت٦٣٧ هـ):المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٢٣٦/٢ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٩م .

والقصيدة ومطلعها حظيتا بعناية كبيرة، لأنهم كانوا يعدون الشعر قفلاً «أوله مفتاحه»[1]، معنى هذا أن المطلع يجب أن يكون أول ما ينظم في القصيدة ، إيذاناً بفتح بابها المغلق، وقد وضع النقاد بعض المعايير لجودة المطلع، منها :

١–المطلع أول ما يقع في السمع من القصيدة، والدال على ما بعده، المنزل من القصيدة منزلة الوجه والغرة، فإذا كان بارعاً وحسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً، وصدر بما يكون فيه من تنبيه وإيقاظ لنفس السامع، أو أشرب بما يؤثر فيها انفعالاً ويثير لها حالاً من تعجب أو تهويل أو تشويق، كان داعياً إلى الإصغاء والاستماع إلى ما بعده ،[2] وهذا اعتبار نفسي محض يحسب حسباناً كبيراً للمستمعين والمتلقين والقراء.

و الحقيقة إن مطلع مقصورة ابن دريد قد كان مثار جدل بين الرواة والنقاد ، ذلك لأنهم قد اختلفوا حول بدايتها فمنهم من يرى أن البيت الأول منها وهو :

يَاظَبْيَـــةً أَشْـــبَهَ شَـــيْءٍ بِالْمَهَـــا تَرْعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا

ليس من كلام ابن دريد وإنما هو من نظم الكمال بن الأنباري ، وضعه ليكون مطلعاً لمقصورة ابن دريد، فهو ضمن عشرة أبيات قدمها للمقصورة والبيت السابق هو آخرهم [3]، وإنما البداية الحقة للمقصورة البيت الآتي :

إِ مَّـا تَـرَى رَأْسِـيَ حَـا كَـى لَـوْنَـهُ طُرَّةَ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدجى

وعلى الصعيد الآخر يرى آخرون أن بيت (يا ظبية ....) هو مطلع المقصورة ، ولكني أرى أن ما أورده السيوطي هو الصواب ، وذلك يرجع إلى التكلف الواضح الذي يبدو من خلال البيت، الأمر الذي يدفعني إلى القول بأن هذا الأسلوب يختلف عن أسلوب ابن دريد .

---

(١)ابن رشيق (أبو على الحسن ت٤٥٦ هـ): العمدة في محاسن الشعر ونقده ٢١٧/١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٦٣م

(٢)حازم القرطاجني ت٦٨٤ هـ:منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص٣٠٩ –٣٠٠ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية التونسية، ١٩٦٦ م .

(٣) راجع في ذلك : السيوطي : بغية الوعاة ١ / ٨٠ ، ٨١

إذا وضعنا مطلع مقصورة ابن دريد تحت منظار هذا المعيار، وجدناه يتسم بهذا المعيار، وأكبر دليل على ذلك أسلوب الشرط، فقد قام الشاعر بتوظيفه في مطلعها، فهو يحدث تشويقاً للسامع من خلال ترقبه لمعرفة جواب الشرط .

٢- مراعاة القاعة البلاغية المشهورة وهي:« مطابقة الكلام لمقتضى الحال»، تلك القاعدة التي طبقوها على المطلع حين أرادوه أن يكون متمشياً مع موضوع القصيدة، ومع من تقال فيه .

ومطلع المقصورة قد جاء ملائماً لمقتضى حال الممدوحين ابني ميكال، فقد أسدلا لابن دريد من المعروف ما يستحقان من خلاله المدح بهذه القصيدة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن هذه القصيدة كانت متنفساً بث الشاعر من خلالها أحزانه وهمومه، ومن ثم جاء مطلع المقصورة مطابقاً لمقتضى الحال .

٣-كذلك الحال إذا تأملنا مطلع المقصورة لوجدناه يتسم بالفخامة بعيداً عن التعقيد والعي والفهة، يخلو من المآخذ النحوية، ينطبق عليه الضوابط التي نص عليها الثعالبي بقوله : « وحقه الحسن والعذوبة لفظاً، والبراعة والجودة معنى، لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن، فإذا كان حاله على الضد مَجَّهُ السمع، وزَجَّهُ القلب، ونبت عنه النفس »[١]

وثمة أمر مهم جعل مطلع المقصورة أكثر جودة وحسناً وهو أنه قد تناصر فيه حسن المصراعين وحسن الثاني، وقد تنبه حازم القرطاجني إلى هذه السمة في الابتداءات فقال:« وأحسن المبادئ ما تناصر فيه حسن المصراعين وحسن الثاني»[٢]

---

(١)الثعالبي(أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ت٤٢٩هـ):يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ١٨١/١ شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ /٢٠٠ م

(٢) حازم القرطاجني ت٦٨٤ هـ:منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص٣٠٩ –٣٠٠ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية التونسية، ١٩٦٦ م .

وتوضيح ذلك أن الشاعر فى مطلعه، تحدث عن بوادر الشيب الذي ظهر برأسه، وأن بياض الشعر قد حلَّ، كطرة الصبح الذي تسلل من تحت خيوط الظلام الذي كان يغطي ساحة رأسه، ثم يأتي بعد ذلك البيت الثاني ليؤكد ذات المعنى حيث ينص على أن الشعر الأبيض، يشرق لامعاً على الصفحة السوداء، كلمعان اشتعال النار في مكان مظلم، يقول ابن دريد :

يَاظَبْيَةً أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْمَهَا   تَرْعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا

إِمَّا تَرَى رَأْسِيَ حَاكَى لَوْنُهُ   طُرَّةَ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى

واشْتَعَلَ الْمُبْيَضُّ فِي مُسْوَدِّهِ   مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الغَضَا

وعلى النحو الذي رأينا كان مطلع مقصورة ابن دريد من الناحية الفنية، وثمة نظرة أخرى يجدر الإشارة إليها وهي الجانب النفسي فمطلع القصيدة المقصورة يعكس لنا شيئاً يتعلق بنفسيته، إذ إنه يشعر في قرارة نفسه أن المشيب قد حلَّ به وعلى الرغم من ذلك، لم يحقق ما طمحت إليه نفسه، ومن ثم شعر بخيبة أمل شديدة دفعته للإفصاح عنها في مطلع المقصورة .

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

مقدمة المقصورة :

يبدأ الشاعر قصيدة المقصورة على عادة شعراء العرب بشكوى الدهر، وهي نمط من أنماط المقدمات التي عرفها الشعراء الذين سبقوا ابن دريد على نحو ما نرى من مقدمة الشيب والشباب والتي تمثلها قصيدة سلامة بن جندل إذ يقول :

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيداً ذُو التَّعَاجِيبِ   أَوْدَى وَذَلِكَ شَأْوٌ غَيْرُ مَطْلُوبِ

وَلَّى حَثِيثاً وَهَذَا الشَّيبُ يَطْلُبُهُ   لَوْكَانَ يُدْرِكُهُ، رَكْضَ الْيَعَاقِيبِ

أَوْدَى الشَّبَابُ الَّذِي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ   فِيهِ نَلَذُّ وَلَا لَذَّاتِ لِلشِّيبِ(١)

---

(١)المفضل الضَّبِّي:المفضليات، المفضلية رقم(٢٢) ص١٢٠،١١٩ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، الطبعة السابعة، دار المعارف .

كما تبدو براعة الشاعر وعبقريته في مقدمة بداية المقصورة، فقد حرص على أن يبدأ هذه المقصورة بأسلوب الشرط مع زيادة "ما" وإدغام النون فيها والاستمرار في فعل الشرط مدى طويلاً استغرق سبعة أبيات ثم أتى بعد ذلك بجواب الشرط، الأمر الذي جعل القارئ أو السامع في حالة ترقب وتشوق لمعرفة الجواب يقول :

إِمَّـــا تَـــرَى رَأْسِـــي حَاكَـــى لَوْنُـــهُ طُـــرَّةَ صُـــبْحٍ تَحْـــتَ أَذْيَـــالَ الدُّجَـــى

....

فَكُـــلُّ مَـــا لاَقَيْتُـــهُ مُغْتَفَـــرُ فِـــي جَنْـــبِ مَـــا أَسْـــأَرَهُ شَـــحْطُ النَّـــوَى .

هذا الأسلوب وغيره كثير يبدو فيه تأثر الشاعر بالأسلوب القرآني على نحو ما نرى من قوله ﷻ :﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ .[1]

وتبدو أصالة الشاعر في اتباعه لهذا المنهج وذلك لأنها أضفت على المقصورة شيئاً من العمق، ومن ثم فقد تباينت وجهات نظر النقاد حول تفسيرها، وتحليل منهجها، ويمكننا أن نميز بين عدة اتجاهات أو تفاسير تتنوع حسب اختلاف المنهج النقدي، والإطار الفكري، وزاوية التناول .

ويمكننا حصر هذه الاتجاهات فيما يلي:[2]

١-الاتجاه البيئي(الجغرافي)،٢- الاتجاه الاجتماعي،٣- الاتجاه النفسي، ٤- الاتجاه الأسطوري، ٥- الاتجاه الفني .

أما الاتجاه البيئي الجغرافي فهو أول هذه الاتجاهات، وأقربها إلى المنطق، وأبعدها عن المزالق، وهو يصل المقدمات بصفة عامة، ومقدمة

(١) مريم : (٢٦) .

(٢) راجع في ذلك الباحث محمود سعد قنديل : الاتجاه الواقعي في شعر القرن الثاني الهجري ص ٢٥٩ وما بعدها(رسالة ماجستير مخطوطة) بكلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ٢٠٠٢ م

المقصورة بصفة خاصة، بطبيعة البيئة البدوية الصحراوية من ناحية،ومن ناحية أخرى فهو يصل بها إلى ظروف المجتمع وعاداته .

وفي إطار هذا الاتجاه ظهرت تفسيرات كثيرة، وآراء متنوعة، من ذلك التفسير من يرى في عناصر المقدمات، وبخاصة المقدمة الطللية صوراً منتزعة من واقع الحياة البدوية القائمة على التنقل والرحيل الدائم، ويمثل هذا الاتجاه من النقاد ابن قتيبة وابن رشيق من النقاد القدماء، وبعض النقاد النقاد المحدثين .

وأما الاتجاه الاجتماعي فيمثله رأي الدكتور يوسف خليف الذي يذهب إلى أن هذه المقدمات بجميع أشكالها تعبر عن محاولة الشاعر إثبات ذاته في مواجهة مشكلة الفراغ والشعور بالخواء والضياع باستغلال وسائل المتعة الثلاثة التي حددتها طبيعة الحياة، وهي المرأة، والخمر، والفروسية .[١]

وأما الاتجاه النفسي فهو يربط بين مقدمات القصيدة ونفسية الشعراء، وفي إطار هذا الاتجاه تعددت الآراء والتحليلات، فمن ذلك رأيٌ للدكتور يوسف خليف الَّذي يرى أن هذه المقدمات تمثل لوناً من الشعر الذاتي الَّذي يفرغ فيه الشاعر لذاته، ويعالج مشاعره وحاجاته النفسية والانفعالية قبل أن يصل إلى الجانب الموضوعي من قصيدته، والَّذي يغفل فيه ذاته ويكرس شعره لخدمة قومه الذين ارتبط بهم بذلك العقد الاجتماعي القائم على العصبية ووحدة المصير، أو بعبارة أخرى، كانت هذه المقدمة فرصة للشاعر ليحقق ذاته ووجوده الضائع في زحمة الالتزامات القبلية .[٢]

وإذا قمنا بتسليط الضوء على مقدمة القصيدة المقصورة، لوجدنا شيئاً وإن شئت فقل أشياء من ضوابط الاتجاه النفسي ينسرب بدوره على مقدمة المقصورة، فالشيب الذي تحدث عنه والحسرة تأكل حشاشة قلبه، وخيبة الأمل تعتصر فؤاده، لأنه يشعر أن نذير الموت قد حلَّ بحياته ولم يحقق آماله التي كان يتطلع إليها .

---

(١) لمزيد من التفصيل، راجع الدكتور يوسف خليف: مقال بمجلة(المجلة) بعنوان«مقدمة القصيدة الجاهلية،محاولة جديدة لتفسيرها»، ص ١٨، العدد(٩٨)، فبراير سنة ١٩٦٥م.
(٢)السابق : ص٢١ .

ومن الباحثين من نزع منزعاً فلسفياً في البحث في أغوار نفس الشاعر الجاهلي عن تفسير لتلك المقدمات، ومن هؤلاء الدكتورة سهير القلماوي،[١] وكذلك المستشرق الألماني« فالتر براونه » .[٢]

فقد فسر هذان الباحثان وقفة الشاعر الجاهلي على الأطلال بأنها كانت أكثر من بكاء على حبيبه وسعادة انقضت، إنها صرخة متمردة يائسة أمام حقيقة الموت والفناء، لأن الشاعر الجاهلي:« لم يكن يؤمن بإله ولا جنة ولا ثواب، قد أحس حقيقة الفناء وحتمية الموت إحساساً يختلف عن إحساسنا نحن اليوم، بل يختلف عن إحساس العرب بعد أن أسلموا»[٣]

ويأتي بعد هذه الاتجاهات تفسير في المقدمات اتجاه آخر يختلف عن الاتجاهات السابقة وهو الاتجاه الأسطوري، فقد تبنى هذا الاتجاه جمهرة من الباحثين أمثال الدكتور نصرت عبد الرحمن في بحثه(الصورة الفنية في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري) وهذا التفسير الأسطوري ينظر إلى المقدمات بوصفها شعائر طقوسية، أو رموز مثيولوجية وثنية استقرت في نفوس الجاهليين من الموروث الديني والفكري للعصور السابقة، ووفق هذا التفسير يصبح الغزل عبادة وتقرباً للآلهة الشمس، وتصبح كل امرأة في هذا الغزل هي بعينها الشمس المعبودة، وإذا كانت رحلة الظعائن هي رحلة مقدسة ترمي إلى هدف ثابت هو الوصول إلى الشمس لنيل الخلود، ويصبح حديث الشاعر عما يلاقيه من ضروب الحيوان الوحشي في رحلته إنما هو حديث عن نجوم السماء المقدسة .[١]

---

(١)الدكتورة سهير القلماوي : مقال بعنوان« تراثنا القديم في أضواء حديثة»، مجلة الكاتب المصري، العدد(٢)، مايو آيار، سنة ١٩٦١ م .

(٢)فالتر براونه: مقال بعنوان« الوجودية في الجاهلية» ، مجلة المعرفة السورية، السنة الثانية، العدد(٤) حزيران ١٩٥٩ م .

(٣) الدكتورة سهير القلماوي:مقال بعنوان« تراثنا القديم في أضواء حديثة»،

(١)الدكتور وهب أحمد رومية:شعرنا القديم والنقد الجديد ص٤٢ ومابعدها، الكويت، مارس١٩٩٦م

ويأتي بعد ذلك التفسير الفني لهذه المقدمات، والذي يمد جسور الصلة بين المقدمة والموضوع الأصلي للقصيدة، ويرى بينهما تكاملاً عضوياً يحتاج إلى إنعام النظر لاكتشافه، فهذه المقدمات جزء لا يتجزأ من القصيدة، والشاعر حين

يعبر عن غرضه بشكل مباشر في الجزء الخاص به من القصيدة، يعبر عنه كذلك من خلال الإيحاء في مقدمة القصيدة .

وكان أول من نادى بذلك المنهج الدكتور طه حسين عندما قلم بتحليل معلقة لبيد، إذ أكد وحدة الإحساس والأثر النفسي فيها،(٢)وقد حاز هذا المنهج الفني في تفسير مقدمة القصيدة العربية، ويستكشفون دلالتها الإيحائية ورموزها الفنية .

وبالتأمل في الاتجاه السابق يدرك أن مقدمة هذه المقصورة ذات صلة أكيدة بالموضوع الأصلي وأنها ليست مقحمة عليها .

حسن التخلص :

يعد حسن التخلص ملمحاً بلاغياً مهماً في إقامة الوحدة و الترابط بين مكونات القصيدة في الشعر العربي ، وبخاصة في القصائد الطوال، التي تتعدد فيها الأغراض وتتوالى المقاطع، إذ يمثل التخلص همزة الوصل بين مقدمة القصيدة وموضوعها الأصلي الذي يتمثل – غالباً – في المدح كما في تلك المقصورة التي نتناولها بالدراسة حتى لا تصبح تلك المقدمة منبتة الصلة بالغرض الأصلي أو الذي يبدو أنه الأصلي من القصيدة .

وقد أجاد ابن دريد إجادة بالغة في هذا التخلص الذي لم يقف عند حدود البيت أو البيتين، بل امتد ليشمل مقطعاً طويلاً من القصيدة عبر من خلاله الشاعر من مقطع إلى الشكوى إلى مقطع الفخر بذاته وبصموده أمام أحداث الدهر إلى وصف سلاحيه الأوحدين : سيفه البتار ، وفرسه الرامح، ثم إلى ذكر أقرانه وأحبابه وأهله بالعراق والتشوق إليهم ، ووصفهم بأنهم وحدهم البشر وما عداهم لا يستحقون وصف

(٢) الدكتور طه حسين:حديث الأربعاء ٣٢/١ طبعة دار المعارف، بالقاهرة .

البشر، وتمثل تلك اللمحة الدلالية اللطيفة منفذاً سحرياً للولوج إلى الموضوع الأصلي للقصيدة على نحو ما نرى من قوله :

وَإِنَّ العِـــرَاقَ لَـــمْ أُفَـــارِقْ أَهْلَـــه عَـــنْ شَنَـــآنٍ صَـــدَّنِي وَلاَ قِلَـــى

وَلاَ اطَّبَـــى عَيْنَـــيَّ مُـــذْ فَارَقْتُهُـــمْ شَـــيْءٌ يَـــرُوقُ الْعَـــيْنَ مِـــنْ هَـــذَا الـــوَرَى

هـــمُ الشَّـــنَاخِيبُ الْمُنِيفَـــاتُ الـــذُّرَى والنـــاسُ أدْحـــالٌ سِـــوَاهُمْ وَهُـــوَى

هُـــــمُ البُحُـــــورُ زَاخِـــرٌ آذِيُّهـــا والنَّـــاسُ ضَحْضَـــاحٌ ثِعَـــابٌ وأَضَـــى

إنْ كُنْـــتُ أَبْصَـــرْتُ لَهُـــمْ مِـــنْ بَعْـــدِهِمْ مِـــثْلاً فَأَغْضَـــبْتُ عَلَـــى وَخْـــزِ السَّـــفَا

حَاشَـــا الأَمِيَـــرِيْنِ اللَّـــذَيْنِ أَوْفَـــدا عَلَـــيَّ ظِـــلاًّ مِـــنْ نَعِـــيمٍ قَـــدْ صَـــفَا

هُمَـــا اللَّـــذانِ عَمَّـــرَا لِـــي جَانِبَـــاً مِـــنَ الرَّجَـــاءِ كَـــانَ قِـــدْمَاً قَـــدْ عَفَـــا

فالشاعر قد ربط بين المقطعين المقدمة والمدح من خلال أسلوب الاستثناء الذي يستثني من خلاله ممدوحيه (الأميرين) في مقطع المديح من أولئك البشر الذين لا يستحقون النسبة إلى البشر في رأي الشاعر في مقطع التشوق السابق، ويعد أسلوب الاستثناء – حينئذ – رابطاً لغوياً نحوياً، كما يعد رابطاً دلالياً في الوقت ذاته يربط المقدمة بالمديح، ويجعل منهما نسيجاً شعرياً متلاحماً، ووحدة دلالية متماسكة .

ثانيا: موسيقى المقصورة :

البحر الشعري :

فمن حيث الوزن صاغ ابن دريد قصيدته على بحر واحد وهو بحر الرجز، وهذا شأن غالبية الشعراء المقصورين، والرجز [1] هو أقدم الأوزان الشعرية العربية، وعنه تطورت كل الأوزان الأخرى، وقد ظل الرجز محدوداً بما هو ناتج عن البديهة والارتجال كالحداء والحماسة والعمل، من حفر وامتياح، وقد أتاحت سهولة عروضه وما به من إمكانيات أن ينهض بمثل هذه الأغراض العملية وأن يصاحبها، وأن يكون لها بمثابة الإيقاع المنتظم الذي يحفز على العمل والنشاط فيه، ومن المعلوم أنه نشأ عن محاكاة وقع أقدام الإبل فى سيرها وسراها فكثرت لحونه وأنغامه نظراً لارتباطه بالحركة الدائبة التي تطول وتقصر وتسرع وتبطئ وبذلك صار الرجز وزناً شعبياً يدور على كل لسان حتى عرف بأنه"حمار الشعر"، يحمل عليه كل شيء، وربما سمي بالزجر لاضطراب وزنه، كما لاحظ ذلك الخليل بن أحمد ، فالعرب تسمى الناقة التي ترتعش فخذاها رجزاء، والمقصود بالاضطراب دخول التغيير في أجزائه بكثرة وإمكانية استعماله في عدة صور مجزوءاً ومشطوراً ومنهوكاً، وهو على الجملة أكثر البحور تغيراً وأغناها بالألحان والأنغام، وأطوعها للحذف والإضافة في تفاعليه مما أتاح الفرصة للشعراء المقصورين ليطيلوا صياغتهم أحياناً ويقصروها أحياناً أخرى حسبما يقتضى البيت ، كما كان في مقدورهم تطويعه لما يشاءون من ألوان التبيين والشرح والتفصيل .

والمتأمل في التراث الشعري القديم يدرك أن هذه الوجهة التي تربط بين بحور الشعر والمعاني والأغراض وجهة تجانب الصواب، فعلى الرغم من أن كل قصيدة من القصائد الجاهلية منظومة في بحر بعينه يحرص الشاعر على عدم تغييره، وأنها تتألف من مجموعة مختلفة من الأغراض، وتعبر عن عدد من المواقف النفسية والاجتماعية المتقابلة، فإن موسيقى هذا البحر أو ذاك تساير طبيعة هذه المواقف

(١)الدكتور:إبراهيم أنيس:موسيقى الشعر ص١٢٦ وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م الطبعة الخامسة.

المتغيرة والأغراض المختلفة، وهذا يدل على أن الشاعر كان يوظف هذا الوزن الواحد، الذي يلتزم بالنظم فيه من أول القصيدة إلى نهايتها، في تنويع أنغامه الموسيقية لتساير مواقفه النفسية المختلفة فيناسب اهتزاز الشاعر وفي عبارة مختصرة أن ذلك يؤكد قدرة هذا البحر أو ذاك من الناحية الموسيقية على مواجهة المواقف والمعاني المختلفة في القصيدة الواحدة، بما يفرزه من أنغام موسيقية متجددة ! .

ويؤكد هذا القول أن المقصورة الشعرية التي نسلط عليها الضوء تحتوي على أغراض متعددة مثل شعر الشكوى، وشعر الوصف، وشعر المديح، وشعر الفخر، وشعر الغزل، وشعر الحنين إلى الوطن، وشعر الحكم والأمثال، فإذا صح الزعم وكان ثمة علاقة بين البحر الشعري والغرض لكان ابن دريد مستخدماً لأكثر من وزن وأكثر من بحر في مقصورته، ولكنه لم يستخدم سوى وزن واحد فقط وهو وزن الرجز ،مما يدل على عدم صحة وجد هذه العلاقة بين الغرض وبين الوزن العروضي .

وعلى الرغم من أن المقصورة قد نظمت في بحر واحد هو" الرجز" فإن نغمات هذا البحر كانت من التنوع بحيث اتسعت للتعبير عن المعاني والمواقف المختلفة التي عرض لها ابن دريد، وتتميز أبيات الشكوى كما سيتضح من خلال عرض بعض الأبيات

(١) **إِ مَّـا تَـرَى رَأْسِـيَ حَـا كَـى لَـوْنُـهُ طُـرَّةَ صُـبْحٍ تَحْـتَ أَذْيَـالِ الـدُّجَى**

(٣) **فَكَـانَ كَاللَّيْـلِ البَهِـيمِ حَـلَّ في أَرْجَائِـهِ ضَـوْءُ صَبَاحٍ فَانْجَـلَى**

(٤) **وَغَـاضَ مَـاءَ شِـرَّتِي دِهْـرٌ رَمَـى خَـوَاطِرَ القَلْـبِ بِتَبْـرِيحِ الجَـوَى**

(٥) **وآضَ رَوْضُ اللَّهْـوِ يَبْسـاً ذَا وِيـاً مِـنْ بَعْـدِ مَـا قَـدْ كَـانَ مُجَّـاجَ الثَّـرَى**

(٦) **وَضَـرَّمَ النـأي المُشِـتُّ جَـذْوَةً مـا تَـأتلي تَسْـفَعُ أثنـاءَ الحَشَـا**

(٧) وَاتَّخَذَ التَّسْهِيدُ عَيْنِي مَأْلَفاً لِمَّا جَفَا أَجْفَانَهَا طَيفُ الكَرَى

(٨) فكُلُّ مَا لا قَيْتُهُ مُغْتَفَرٌ في جَنْبِ مَا أَسْأَرَهُ شَحْطُ النَّوَى

(٩) لَوْ لابَسَ الصَّخْرَ الأَصَمَّ بَعْضُ مَا يَلْقَاهُ قَلْبِي فَضَّ أَصْلادَ الصَّفَا

(١٠) إذا ذَوَى الغُصْنُ الرَّطيبُ فاعْلَمَنْ أَنَّ قُصَارَاهُ نَفَاذٌ وتَوَى

(١١) شَجِيتُ، لا بَلْ أَجْرَضَتْنِي غُصَّةً عَنُودُهَا أَقْتَلُ لِي مِنَ الشَّجَى

(١٢) إن يَحْمِ عَنْ عَيْنِي الْبُكَا تَجَلُّدِي فَالْقَلْبُ مَوْقُوفُ عَلَى سُبْلِ الْبُكَا

(١٣) لَوْ كَانَتِ الأَحْلامُ نَاجَتْنِي بِمَا أَلْقَاهُ يَقْظَانَ، لأَصْمَانِي الرَّدَى

(١٤) مَنْزِلَةٌ مَا خِلْتُهَا يَرْضَى بِهَا لِنَفْسِهِ ذُو أَرَبٍ وَ لاَ حِجَا

(١٥) شَيْمُ سَحَابٍ، خُلْبِ بَارِقُهُ ومَوْقِفٌ بَيْنَ ارْتِجَاءٍ ومُنَى

(١٦) في كل يوم منزلُ مُسْتَوْبَلُ يَشْتَفُّ مَاءَ مُهْجَتِي أَوْ مُجْتَوَى

(١٧) مَا خِلْتُ أَنَّ الدّهْرَ يُثْنِينِي عَلَى ضَرَّاءَ لا يَرْضَى بِهَا ضَبُّ الكُدَى

(١٨) أَرَمَّقُ العَيْشَ عَلَى بَرْضٍ فَانٍ رُمتُ ارْتِشَافاً رُمْتُ صَعْبَ الْمُنْتَشَى

(١٩) أَرَاجِعٌ لِي الدَّهْرُ حَوْلاً كَامِلاً إلى الذي عَوَّد أَمْ لا يُرْتَجَى

(٢٠) يَا دَهْرُ إِنْ لَمْ تَكُ عُتْبَى فَاتَّئِدْ فَإِنَّ إِرْوَاءَكَ والعُتْبَى سَوَا

فالمتأمل في الأبيات السابقة يدرك أن الموسيقى قد سارت بسرعة تتلاءم والأحداث المتتالية التي سرعان ما تتبدل وتتبدل معها حياة الشاعر من النقيض إلى النقيض، وما يحدثه الدهر من نكبات تلاحقه، وهذه السرعة في الموسيقى، أو فلنقل تتابع

الحركات والسكنات في أبياته الأولى، فمكونات أو أجزاء التفعيلة في الرجز يتكون من سببين خفيفين ووتد مجموع (/ه/ه //ه) .

فالتفعيلة إذن تتكون من أربع حركات يتخللها ثلاث سكنات، وكل بيت يتكون من شطرين، كل شطر يتكون من ثلاثة مقاطع متساوية وموحدة، وعدد مقاطع البيت إذن ستة مقاطع وهي على النحو الآتي :

(/ه/ه//ه)(/ه/ه//ه) (/ه/ه//ه) ❁ (/ه/ه//ه)(/ه/ه//ه)(/ه/ه//ه)

تفعيلة تفعيلة تفعيلة تفعيلة تفعيلة تفعيلة

وهذا المقطع يعكس لنا الجو النفسي الخاص الذي يفرضه عليه الدهر وأحداثه هذا إلى جانب أنه يشعر بتغير الحال لديه بحلول بوادر الشيب على ناصيته، ومثل هذا النغم السريع المتتالي كثيراً ما يأتي به الشعراء في مطالع القصائد ومقدماتها، تلك المقدمات التي كثيراً ما تحتاج إلى سرعة ردود الأفعال صوب الأحداث .

إن اتساع الوزن الواحد لأغراض القصيدة المتعددة، وكذا تنوع موسيقى هذه الأغراض، واستجابة الوزن الواحد لكل هذه الأساليب والمعاني، كل هذا ليؤكد ما نذهب إليه من قدرة هذه الأوزان على مواجهة العواطف المتباينة لدى الشاعر مواجهة خصبة ومتغيرة أيضاً، وذلك بخلق ألوان من موسيقى الشعر في القصيدة الواحدة كالمقصورة التي نقوم بالحديث عنها، كما أن لها القدرة على إحداث تأثيرات متباينة في قراء الشعر ومستمعيه .

القافية :

أما من حيث القافية فقد التزم بها ابن دريد في مقصورته لكننا قد نجد فى البيت الواحد أكثر من لفظ مقصور ، فالبيت :

لا تَعْجَبَن مِنْ هَالِكٍ كَيْفَ هَوَى بَلْ فَاعْجَبَنْ مِنْ سَالِم كَيْفَ نَجَا

يشمل على لفظين مقصورين والبيت :

يَرْسُبْنَ فِي بَحْرِ الدُّجَى والضُّحَى يَطْفُونَ فِي الآلِ إِذَا الآلُ طَفَا

يشمل على ثلاثة ألفاظ مقصورة ، والبيتان :

قَدْ سَمَا قَبْلِى يَزِيدُ طَالِباً شَأْوَا العُلا، فَمَا وَهَى، وَلا وَنَى

هُمْ الأُلَى أَجْرُوا يَنَابِيعَ النَّدَى هَامِيَةً لِمَنْ عَرَى أَوِ اعْتَفَى

يشتمل كل واحد منهما على أربعة ألفاظ مقصورة ، والبيتان :

تَغْدُو المَنَايَا طَائِعَاتٍ أَمْرَهُ تَرْضَى الذِّي يَرْضَى وَتَأْبَى مَا أَبَى

يَرْضَخُ بِالبِيدِ الحَصَى فَإِنْ رَقَا إلى الرُّبَا أَوْرَى بِهَا نَارَ الحَبَا

يشتمل كل واحد منهما على خمسة ألفاظ مقصورة .

وعلى أية حال فأكثر أبيات المقصورة يتضمن لفظين أو ثلاثة من ألفاظ المقصور حتى قيل إن ابن دريد قد حشد فيها ما يقرب من ثلث المقصور في اللغة .

ثالثا الصورة الفنية

الصور والأخيلة:

تعد الصورة الشعرية عماد الإبداع الشعري، إذ هي الأداة السحرية التي يتحول من خلالها النسيج اللغوي للقصيدة من الدلالات اللغوية المباشرة التي تمثل عالم الذات أوالرؤية الشعرية للمبدع .

وتأسيساً على ما سبق فإن الصورة الشعرية لها دور مهم في نقل عاطفة الشاعر وأحاسيسه وانفعالاته للمتلقي أو السامع أو القارئ .

والصورة الشعرية تعتمد في المقام الأول على وسائل مجازية وخيالية متعددة تتمثل في التشبيه والاستعارة اللذين يقومان على علاقة المشابهة، كما تتمثل في الكناية التي تعتمد على تقنية التداعي، والمجاز المرسل الذي يقوم على علاقات متعددة غير المشابهة .

لقد حرص ابن دريد على الإتيان بكثير من التشبيهات والاستعارات في مقصورته الشعرية، فمن التشبيه ما نراه في البيت الأول، حيث شبه الشيب في رأسه بطرة الصبح تحت أذيال الدجى، وكذلك تشبيه الأمل بشيم السحاب ذي البرق الخلاب الذي يشعر مُتَرَقِّبُهُ بمزيج من الرجاء والخوف والطمع واليأس وذلك في البيت :

شَيْمُ سِحَابٍ خُلَّبٍ بَارِقُهُ وَمَوْقِفُ بَيْنَ ارْتِجَاءٍ ومُنَى

وكذلك تشبيه المحبوبة بالظبية والمها عندما قال :

يَا ظَبْيَةً أَشْبَه شَيْءٍ بِالْمَهَا تَرْعَى الخُزَامَى بَينَ أَشْجَارِ النَّقَا

وكذلك قوله :

يَا هَؤُلَيَّا هَلْ نَشَدْتُنَّ لَنَا رَافِعَةَ البُرْقُعِ عَنْ عَيْنَيْ طَلا

وكذلك أيضاً تشبيه صفحة السيف بِمَدَبِّ النمل عندما قال :

وصَاحِبَاي صَارِمٌ فِي مَتْنِهِ مِثْلُ مَدَبِّ النَّمْلِ يَعْلُو فِي الرُّبَى

كما نراه يشبه بياض السيف بالملح على نحو ما نرى من قوله :

أَبْـــيَضُ كَـــالْمِلْحِ إِذَا انْتَضَـــيْتُهُ لَـــمْ يَلْـــقَ شَـــيئاً حَـــدُّهُ إِلاَّ فَـــرَى

ويشبه الجواد بالسَّنا والبرق في قوله :

إِذَا اجْتَهَـــدْتَ نَظَـــراً فِـــي إِثْـــرِهِ قَلَّـــتَ سَـــناً أَوْمَـــضَ أو بَـــرْقٌ خَفَـــا

ويشبه أيضاً أهل العراق بالجبال العالية ويشبه غيرهم من الناس بالقيعان المنخفضة وهو في هذا التشبيه يعقد مقارنة لطيفة تبرز لنا حال المشبه ومقدار ما يتمتع به من رفعة ومجد يقول :

هُـــمُ الشَّـــنَاخِيبُ المُنِيفَـــاتُ الـــذُّرَى والنَّـــاسُ أَدْحَـــالٌ سِواهُـــمْ وهَـــوَى

ويشبههم أيضاً بالبحور المرتفعة الأمواج وغيرهم من الناس بالغدران القليلة الماء:

هُـــمُ البُحُـــورُ زَاخِـــرٌ آذِيُّهَـــا والنَّـــاسُ ضِحْضَـــاحٌ ثُعَـــابٌ وَأَضَـــى

وعلى أية حال فالتشبيهات في المقصورة أكثر من أن تُحصى وإنما أوردت الأمثلة والنماذج السابقة على سبيل الاستشهاد، ومن الاستعارات التي أبدع فيها الشاعر:

قوله عندما عمد إلى وصف سيفه ، فسيفه من شدة إعماله ونفاذه وحدته يستطيع أن يجعل المنية تابعة له أينما حلَّ فهى تقفو أثره فى أجساد وأكباد أعدائه يقول :

يُـــرِى المَنُـــونَ حِـــينَ تَقْفُـــو إِثْـــرَه فِـــي ظُلَـــمِ الأَكْبَـــادِ سُـــبْلاً لا تُـــرَى

ومن الاستعارات اللطيفة قوله عندما يصف رضاب المحبوبة وهو في الذي يعلوه بياض الأسنان الناضعة لدرجة أن من شدة بياض أسنانها يعلوها سواد مختلط بسمرة الشفتين وكأن ريقها العذب وهو يرتشفه إنما يرتشفه إنما خمراً ممزوجة بجنى الورد الغض النضير يقول ابن دريد :

كَأَنَمَّـــا الصَّـــهْبَاءُ مَقْطُـــوبٌ بِهَـــا مَـــاءُ جَنْـــيِ وَرْدٍ إِذَا اللَيْـــلُ عَسَـــا

يَمْتَاحُـــه راشِـــفُ بَـــرْدِ ريقِهَـــا بَـــيْنَ بَيَـــاضِ الظَّلَـــمِ مِنْهَـــا واللُّمَـــى

كما يصور الشاعر نظرات المحبوبة وألحاظها بالسهام التي تصرع العشاق فيلقون حتفه يقول الشاعر :

فَالمَرْبِدَ الأَعْلَى الذِّي تَلْقَى بِهِ مَصَارِعَ الأُسْدِ بِأَلْحَاظِ المهَا

وما أروع الاستعارات التشخيصية عندما صور بقاع الأرض بإنسان يعترف بمعروف وكرم الممدوح يقول الشاعر :

وطَبَّقَ الأَرْضَ فَكُلٌّ بُقْعَةٍ مِنْهَا تَقُولُ : الغَيْثُ فِي هَانَا ثَوَى

كذلك يصور الهمَّ العظيم والقمَّ الطاغي بطاغية مستبدٍ استطاع الشاعر أن يتغلب عليه ويخضعه ويسيطر عليه بالكتمان وعدم إظهاره يقول الشاعر :

وَإِنْ ثَوَتْ تَحْتَ ضُلُوعِي زَفْرَةُ تَمْلأُ مَا بَيْنَ الرَّجَا إلى الرَّجَا

نَهْنَهْتُهَا مكظومةً حَتَّى يرى مُخْضَوضِعاً منها الَّذِي كَانَ طَغَا

ومن الصور الكاملة القائمة على مذهب التصنيع قوله :

مَنْ مَلَّكَ الحِرْصَ القِيادَ لَمْ يَزَلْ يَكْرَعُ فِي مَاءٍ مِنَ الّذي صَوَى

مَنْ عَارَضَ الأَطْمَاعَ بِاليَأْس رَنَتْ إليه عَيْنُ العِزِّ مِنْ حَيْثُ رَنَا

فهذه صورة كاملة تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ، فالحرص إنسان يمتلك زمام صاحبه الذى لا يزال يتجرع منه غصصاً فاسدة ضارة ، أما من خلص نفسه من ربقة الطمع والشراهة ، وآثر الرضا والقناعة ، فإن العزَّ يتجه إليه أينما مضى ، فالعزّ أيضاً شخص له عين يرنو بها ..... وهكذا نرى الصورة كاملة فيها الاستعارة والكناية والتشخيص ، كما نرى أيضاً الطباق بين الأطماع واليأس ، وبين الذَّل والعزَّ .

ومن الصور البديعة الكاملة التى بلغ فيها ابن دريد الغاية :

نَحْـــنُ وَلا كُفْـــرَانَ لِلَّـــه كَمَـــا قَـــدْ قِيـــلَ للسَّـــارِبِ أَخْلـــى فَـــارْتَقَى

إِذَا أَحـــسَّ نَبَـــأَةً رِيـــعَ وَإِنْ تَطَامَنَـــتْ عَنْـــهُ تَمَـــادَى ولهـــا

كَثُلَّـــةٍ رِيعَـــتْ لِلَيْـــثٍ فَـــانزَوَتْ حَتّـــى إِذَا غَـــابَ اطْمَأَنَّـــتْ أَنْ مَضَـــى

المحسنات البديعية

نرى في المقصورة حُلى بديعية منثورة في ثناياها وهذا أمر طبيعى أن يعتمد ابن دريد على ألوان البديع ، وهو اللغوي المقتدر الذي يفاخر اللغويين بأسرار العربية وألفاظها وتراكيبها وصياغتها ، فالبديع لديه عنصر من عناصر التشويق والزخرفة على نحو ما نرى من طباق في أول أبيات المقصورة :

أَمَـــا تَـــرَى رَأْسِـــيَ حَـــاكَى لَوْنُـــهُ طُـــرَّةَ صُـــبْحٍ تَحْـــتَ أَذْيَـــالَ الـــدُّجَى

بين الصبح والدجى ، وفي البيت الثاني :

واشْـــتَعَل المُبْـــيَضُّ فِـــي مُسْـــوَدِّهُ مِثْـــلَ اشْـــتِعَالِ النَّـــارِ فِـــي جَـــزْلِ الغَضَـــا

بين المسود والمبيض ، وفي البيت الثالث :

فَكَـــانَ كَاللَّيْـــلِ البَهِـــيم حَـــلَّ فِـــي أَرْجَائِـــهِ ضَـــوْءُ صَـــبَاحٍ فَـــانْجَلَى

بين الليل البهيم وضوء الصباح ، وفي البيت الخامس :

وآض رَوْض اللَّهْـــوِ يُبْســـاً ذَّاوِيـــاً مِـــنْ بَعْـــدِ مَـــا قَـــدْ كَـــانَ مُجَـــاجَ الثَّـــرَى

بين اليبس الذاغوي ومجاج الثرى ، وفى البيت السابع :

واتَّخَـــذَ التَّسْـــهِيدُ عَـــيْني مَأْلَفـــاً لَمَـــا جَفَـــا اَجْفَانَهـــا طَيْـــفُ الكـــرَى

بين التسهيد والكرى ، وبين مألفاً وجفا، ومن هذا القبيل أيضاً ما نراه في قوله :

خُـــرْص كَأَشْـــبَاحِ الحَنَايـــا خُمَّـــر يَـــرْعَفْنَ بِالأَمْشَـــاج مِـــن جَـــذْبِ الـــبرا

يَرْسُـــبْنَ فِـــي بَحْـــر الـــدُّجَى وبِالضُّـــحَى يطفـــــون في الآل إذا الآل طفـــــا

فالصورة في البيتين في غاية الطرافة، وهى قائمة على التشبيه والاستعارة مع الطباق بين يرسبن ويطفون، وبين الدّجى والضحى، والجناس التام بين الآل والآل، ويطفون وطفا .

كما نرى الجناس ظاهر في بعض أبيات المقصورة على نحو ما نرى في قوله :

وغـــاض مـــاء شـــرتى دهـــر رمـــى خـــواطر القلـــب بتـــبريح الجـــوى

وآض روض اللـــهو يبســـاً ذاويـــا مـــن بعـــد مـــا قـــد كـــان مُجَّـــاج الثـــرى

بين غاض وآض وكذلك في البيت السابع :

واتَّخَـــذَ التَّسْـــهِيدُ عَـــيْني مَأْلَفـــاً لَمَـــا جَفَـــا اَجْفَانَهـــا طَيْـــفُ الكـــرَى

بين جفا وأجفانها .

ومن المحسنات البديعية أيضاً التى تناثرت وترددت بين أبيات المقصورة المقابلة على نحو ما نرى فى قوله :

والنـــاس كالنبـــت فمـــنهم رائـــع غـــض نضـــير عـــوده مـــرُّ الجنـــى

ومنـــه مـــا تقـــتحم العـــين فـــإن ذقـــت جنـــاه انســـاغ عـــذباً في اللـــها

ومن المقابلات الرائعة التي وردت في المقصورة والتي اعتمدت على المزج بين العقل والحس وعلى الجناس والطباق والمشاكلة قوله :

لِـــيَ التِـــوَاءُ إِنْ مُعَـــادِيَّ التَـــوَى وَلِـــي اســـتواء إِنْ مُـــوالِيَّ اسْـــتَوى

طَعْمِـــيَ شَـــرْيُ لِلعَـــدُوِّ تَـــارَةً والـــرَّاحُ والأَرْيُ لِمَـــنْ وُدِّي ابْتَغَـــى

لَـــدْنُ إذا لُوِينْـــتُ سَـــهْلُ مَعْطِفـــي أَلَـــوَى إذا خُوشِـــنَتْ مَرْهُـــوبَ الشَّـــذا

وأما قوله :

ومُنْـــتِج أُمُّ أَبيـــهِ أُمِّـــهِ لَـــمْ يَتَخَـــوَّنْ جِسْـــمُهُ مَـــسُّ الضَّـــوَى

أَفْرَشْـــتُهُ بِنْـــتَ أَخِيـــهِ فَانْثَنَـــتْ عَـــنْ وَلَـــدٍ يُـــوَرى بِـــهِ فَيُشْـــتَوَى

فصور الشاعر تقوم على التشخيص والتصنيع الذي يصل إلى حَدِّ الغموض والإلغاز، صورة معقدة من التشخيص والتصنيع تتشابك فيها الاستعارة والكناية والتورية وتكملها صورة أخرى كلية تعتمد على الصوت واللون والحركة يقول الشاعر :

وَمَرْقَبٍ مُخْلَوْلِقٍ أَرْجاؤُهُ ... مُسْتَصْعبِ المسكِ وَعْرِ المُرْتَقَى

والشَّخْصُ فِي الآل يُرَى لِنَاظِرٍ ... تَرْمُقُهُ حِيناً وحيناً لا يَرَى

أوفيت والشمس تَمُجُّ زِيقَها ... والظِّلُّ مِنْ تَحتِ الحِذَاء مُعْتَذَى

وطَارِقٍ يُؤْنِسُهُ الذِّئبُ إِذَا ... تَضَوَّرَ الذُّئبُ عِشَاءٍ وانْضَوَى

آوَى إلى نَارِي وَهْيَ مَأْلَفُ ... يدعو العُفَاةَ ضَوءُها إلى القِرَى

ولا غرو في ذلك فشاعرنا ينثر في مقصورته خلى البديع هنا وهناك، ويوشيها بضروب وألوان من الصور الفنية ليتيح لما يعرض فيها من أفكار أن تجتلي اجتلاءً ، وأن تقع في نفس متلقيها وقوعاً حسناً .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

العاطفة

تبدو العاطفة في المقصورة متدفقة في كل بيت من أبياتها بل في كل لفظة، وذلك يرجع من وجهة نظري إلى المعايشة الصادقة للتجربة الشعرية التي خاضها، ويبرهن على هذا أن العاطفة تبدو قوية صادقة في الحكم والأمثال الرفيعة – غالباً – نتيجة للتجارب الكثيرة والخبرة الواسعة التي يمتلكها الشاعر، وقد أشاعت هذه الأمثال والحكم في جو القصيدة نوعاً من الجمال والتأثير نكاد نلمسها ولا نستطيع أن نعطيها حقها في التفسير والشرح والبيان فهي يصح الإطلاق عليها " السهل الممتنع " [1] .

فالعاطفة في الأدب عنصر أسلوبي يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضاً مباشراً صريحاً .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) الأستاذ / أحمد الشايب : الأسلوب ص ٥٢ .

الخاتمة وخلاصة البحث

تناولت المقصورة الشعرية عدداً من الموضوعات التي تضمنتها والأغراض الشعرية التي تناولتها، فقد احتوت مقصورة ابن دريد على عدة أغراض شعرية إلى جانب الغرض الرئيسي الذي قيلت فيه وهو مدح آل ميكال ، وهذه الأغراض نالت من ابن دريد عناية لا تقل عن عنايته بالمديح بل تفوقه ، ولا أكون مبالغاً إذا أجملت هذه الأغراض فيما يلي :

أولاً : أول هذه الأغراض وأهمها التعليم ، وهو غرض ينتظم القصيدة من أولها إلى آخرها فهي من الشعر التعليمى الذي يهدف إلى تعليم اللغة والمعارف والمعلومات التاريخية مع الحضّ على التحلي بالأخلاق الحسنة والتمثيل بالمثل العليا في إطار من الحكمة الرفيعة والأمثال الرائعة .

ثانيـاً : شكوى المشيب والبكاء على الشباب الذي وَلَّي كما في المقدمة والشكوى من الزمان فشكوى المشيب والبكاء على الشباب استغرق من البيت الأول وحتى البيت الثامن وشكوى الزمان استغرق من البيت الحادي عشر حتى البيت الثلاثين .

ثالثاً : الوصف، وقد قام ابن دريد بوصف الخيل وقد استغرق ذلك من البيت الخامس والأربعين وحتى البيت الثامن والخمسين ، وقام أيضاً بوصف السيف واستغرق ذلك من البيت الثاني والسبعين وحتى البيت التسعين ، وقام بوصف الإبل وما عليها من حجيج والسحاب والمطر والمفاوز والجبال والليل والنهار والذئب، واستغرق ذلك من البيت الثلاثين بعد المائة وحتى البيت الأربعين بعد المائة .

رابعاً : الفخر بصفاته النفسية وبما يتحلى من صبر وصمود وشجاعة وخبرة وقوة وعزيمة وقد استغرق ذلك البيتين الثاني والعشرين والثالث والعشرين وكذلك الأبيات الحادى والتسعين والثالث والتسعين ، وأيضاً من البيت الثاني والأربعين بعد المائة وحتى السادس والخمسين بعد المائة .

خامساً : المدح ابني ميكال وهو الغرض الأساسي الذي أُنشئت فيه القصيدة وكذلك مدح العرب، ومدح أهل العراق، ومدح أهل البصرة، ومدح بقايا الناس الأخيار واستغرق ذلك من البيت التاسع والتسعين وحتى الثالث عشر بعد المائة، وكذلك البيت السادس والستين وحتى البيت التسعين ، وكذلك من البيت الرابع والتسعين وحتى البيت الثامن والتسعين، وكذلك أيضاً من البيت الخامس والعشرين بعد المائة وحتى البيت التاسع والعشرين بعد المائة وأيضاً من البيت الخامس بعد المائتين وحتى البيت السابع بعد المائتين .

سادساً : التأسي ببعض الحوادث والشخصيات التاريخية واستغراق ذلك من البيت الحادى والثلاثين وحتى البيت الثالث والأربعين .

سابعاً : الغزل وقد استغراق ذلك من البيت السابع عشر بعد المائة وحتى البيت الرابع والعشرين بعد المائة .

ثامناً : الخمريات ومن يحضرها من نديم واستغرق ذلك الغرض من البيت الأربعين بعد المائتين وحتى البيت السابع والأربعين بعد المائتين .

تاسعاً : الحكمة وهي حكمة ابن دريد الذي خاض غمرات الحياة بحلوها ومرّها ، وتجاربه مع الزمان والمكان مما أكسبه العميق من الخبرات التي أجاد فيها وجادت بها قريحته سعراً عذباً سائغاً للسامعين واستغرق ذلك من البيت الثامن والخمسين بعد المائة وحتى البيت العاشر بعد المائتين وكذلك من البيت الثامن والأربعين بعد المائتين وحتى البيت الثاني والخمسين بعد المائتين .

هذه هي جملة الأغراض التي حوتها مقصورة ابن دريد ، وقد حوت أكثر أغراض الشعر العربي باستثناء الرثاء والهجاء ، وقد نالت الأغراض الإضافية عناية من ابن دريد لا تقل عن عنايته بالغرض الأساسي .

وبعد :

فيمكننا أن نقول بكل ثقة أن شاعرنا قد أبدع في كل تشبيهاته واستعاراته ومحسناته البديعية ، وصوره الكلية ، كما أبدع في كل ما عرضه من إشارات

تاريخية وأدبية ، وما أرسله من حكم وأمثال مما يعلم الإنسان كيف ينبغي أن يعيش في الدنيا ، كما كان بارعاً في عرض مقدرته اللغوية المتفردة ، وشاعريته الرفيعة العميقة التي كانت أقوى من كل قيود الشعر التعليمي الذي نظمت القصيدة في إطاره ، ولا عجب في فابن دريد كما كان عالماً بارعاً في علوم اللغة كان أيضاً ذا أدب وشاعرية، وقد استحقت المقصورة الدريدية عناية كثير من العلماء واللغويين والأدباء .